

حجر الدر في أسوار بابل

اســـــم الكتـــــاب: حجـــر الــــدر في أســــوار بابـــل

التـأليــــــــــف: ســــــــندس الشـــــــــاوي

نــــوع العمـــــل: روايـــة

إخــــراج داخلـــــي: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقـــــم الإيـــداع: 2021 / 00000

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-000-0

الناشــــــــــــــر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

حجر الدر في أسوار بابل

رواية

سندس الشاوي

إهداء

إلى (عشتار) التي رقدت بسلام

إلى (حمورابي) الذي لو نهض من نومه لوجد واقعًا غريبًا

إلى (نبوخذ نصر) الذي ترك بصمته التي لا يمكن أن تُمحى.

إلى أرض الرافدين التي أشتاق إليها، وإلى نهري دجلة والفرات...

وإلى نخيل بلادي ومائها العذب..

وإلى كل من رحل وترك أجمل أثر في قلوبنا

أُهدِي هذه الرواية.

ملخص الرواية

يتجلى الحب مجددًا في هذه الرواية التي تتحدث عن محبة ماريا لزوجها وعائلتها الصغيرة والكبيرة، وتدمج الرواية بين تاريخ الأجداد القديم وبين حياة الأحفاد قبل فترة من الزمان حيث يمزج بينهم جميعًا وجودهم على أرض العراق، فماضيهم هو سكناهم في الموصل، وحاضرهم هو حياتهم في بغداد. وما بين الماضي والحاضر تمر بهم قصص وأحداث مختلفة يعرجون فيها على عدة مدن عراقية أخرى، وتتخلل ذلك الكثير من القصص التي تحمل التوثيق الشيّق والسلس للكثير من المواقع والآثار العراقية العتيقة. ليتزود القارئ الكريم بين سطور الرواية بالكثير من المعلومات التاريخية المهمة والتي لن يشعر فيها بجمود التاريخ، وإنما سيستمتع بعيش اللحظات الجميلة مع أبطال الرواية ويطلع عن قربٍ على الكثير من الحضارات الذين مروا عبر التاريخ القديم والجديد على أرض العراق العظيمة.

قال الشاعر:

بكيـــتُ وهـــل بكـــاءُ القلـــبِ يجـــدي؟
فِـــراق أحبّتـــي وحنـــين وجـــدي
فمـــا معنـــى الحيـــاة إذا افترقنـــا؟
وهـــل يُجـــدي النحيـــب فلســـتُ أدري
فـــلا التّـــذكار يرحمنـــي فأنســـى
ولا الأشـــواقُ تتركنـــي لنـــومي
فـــراقُ أحبّتـــي كـــم هـــزّ وجـــدي
وحتـــى لقـــائهم ســـأظلُ أبكـــي.

بعد أن جلست ماريا بكل استرخاء سافرت في عالم التذكر لتستحضر طفولتها عندما كانت فتاةً صغيرةً ذات بشرةٍ صافية نقية وردية اللون وعيون عسلية جميلة، وكان شعرها كثيفًا ومجعدًا وأشقر اللون.

وفي مكانها واصلت السفر في عالم الذكريات، لتستذكر الفترات التي كانت تعيش فيها مع أهلها في مدينة (نِينَوى الحدباء) التابعة لمدينة الموصل، والتي كانت خضراء غامضة كَلون لباسها المفضل[١]

---

[١] تعد منارة الحدباء أحد أبرز الآثار التاريخية في مدينة الموصل العراقية، فهي جزء من جامع النوري الكبير الذي بُني في القرن السادس الهجري.. واشتهرت باسم الحدباء بسبب ميلانها رغم أنها قديمًا كانت تسمى المنارة الطويلة.. وهي مطبوعة الآن على الدينار العراقي فئة عشرة آلاف دينار. وتقع في الشطر الغربي من مدينة الموصل حيث الضفة الغربية لنهر دجلة الذي يُقسم المدينة إلى قسمين، وتسمى المنطقة المحيطة بها بمحلة الجامع الكبير.

وقد أمر ببناء منارة الحدباء والي الموصل عماد الدين زنكي، والتي يُقدر ارتفاعها بخمسة وستين مترًا وعرضها سبعة عشر مترًا، وهي تُعد من ضمن سبعة عشر برجًا مائلًا في شتى أنحاء العالم. ولقد بناها المهندس إبراهيم الموصلي الذي أخذ في الاعتبار أساليب البناء والنواحي الهندسية ومدى تأثير العوامل المناخية والبيئية عليها مع تجانس الخصائص الفنية والزخرفية وارتباطهما بالناحية الدينية، مما جعلت هذه المنارة تتميز بهندستها وبنقوشها الجميلة التي تعكس الفن المعماري الإسلامي. وعندما زار الرحالة الشهير ابن بطوطة مدينة الموصل بعد بنائها بنحو قرنين من الزمان كانت المئذنة قد مالت قليلًا.

كانت ماريا هي وحيدة أبويها عندما تذكرت شقائق النعمان التي كانت تجمعها في كل ربيع لتشكل باقة مختلطة بالأزهار تقدمها لأمها التي كانت تُحب الورد كثيرًا، فتكافئها بقبلة وحضن حنون، ويتجاذبان أطراف الحديث حول الدراسة.. حيث كانت المدارس في ثلاثينيات القرن الماضي متواضعة البناء الذي كان يتناغم مع الطراز الشرقي في مدينتهم.

شعرت ماريا المسيحية الأرثوذكسية بمُتعة متناهية وهي تواصل استعادة الذكريات خصوصًا تلك التي تتعلّق بمرحلة الدراسة الابتدائية، حيث لا تنسى تلك الرحلة المدرسية التي ذهبت فيها عندما كانت في الصف الخامس الابتدائي إلى مدينة بابل التاريخية، والتي رافقتها فيها صديقتها المسلمة زينب السمراء ذات العيون والشعر الأسود رشيقة القوام الطويلة التي كانت تنتمي للمذهب اليزيدي.

تتذكر صعوبة المواصلات حينها في الموصل[١] حيث ذهبوا جميعًا في حافلة من الخشب. وكانت مديرة المدرسة أربعينية العمر، قصيرة ممتلئة قمحية البشرة ترتدي الحجاب الإسلامي، وكانت تمتاز بالصوت الجهوري مما جعل الجميع يخاف منها، فما إن تُسمع صوت أقدامها وهي تقترب من الصف حتى يُلجِم الصمت الجميع وكأنّ الطير فوق رؤوسهم.

---

[١] الموصل هي قطعة جميلة من الموزاييك تتضمن مختلف شرائح المجتمع منهم المسيحيون والمسلمون، واليزيديون، وكلهم يعيشون على رقعة واحدة من الأرض كالإخوة يعيشون بسلام.

ورغم ذلك فقد كانت نشيطة جدًا، وخير قدوة للجميع، حينما كانت تتأكد بصورة دائمة من نظافتهم ونظافة ملابسهم وتقليم أظافرهم، لدرجة أن ماريا وصديقاتها أصبحن يرين أنها بمثابة أمهن الثانية.

تتذكر ماريا الفضل الكبير الذي يعود لها في تعليمها الحروف خصوصا حرف الواو حيث رسمته لهم عندما كانت جالسة في الصف الأول، لتراها تكتب على السبورة (واحد) وتقول لهم: (إن الله واحد)

كما أن لها الفضل الكبير في تعليمها الكتابة والقراءة عندما كانت تكرر عليهم دائمًا حديث النبي ﷺ حينما قال له جبريل عليه السلام: (اقرأ). فردّ عليه النبي ﷺ (ما أنا بقارئ)، وبعد التكرار ثلاث مرات قال له جبريل عليه السلام:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ ﴾

[العلق: ١-٥]

وهذا ما جعلها تتحفّز للقراءة والكتابة لدرجة أن المعلمة لو طلبت منها كتابة صفحتين كتبت أربع صفحات من شغفها بالتعلم، لقد كانت تُسابق الزمن وكأنها تريد أن تمسك خيوط الشمس بيديها، فطموحها يكسر الصخر، ولذلك كانت تحقق المركز الأول في الدراسة دائمًا.

تعيش ماريا في عُمق أعماق ذكرياتها بصورة دائمة خصوصًا لحظات الطفولة الجميلة، وذكريات رحلتها إلى مدينة بابل التي سكنها الموالتي سرق الاستعمار الكثير من آثارها!! ولذلك كانت تتساءل ماريا دائمًا: ماذا لو بقيت تلك الآثار في العراق؟ وتجيب نفسها قائلة: لربما دمرها الإرهاب كغيرها! [1]

---

[1] بابل في العراق هي مهد الأنبياء، وكانت عاصمة البابليين أيام حكم الملك حمورابي الذي علّم الناس القانون وتحقيق العدالة، من خلال مسألته الشهيرة التي سرقها الاستعمار ووضعها الآن في المتاحف الأوروبية!!

وبابل هي الإمبراطورية الثانية وتسمى (الكلدانية) نسبة إلى مؤسسها نبوخذ نصر الكلدي الذي أسسها في العام ستمائة وسبعة وعشرين، ومن ثم سيطر على حكم الآشوريين وتمكن من توحيد القبائل والسيطرة على بابل والجنوب، كما تمكن من إسقاط نينوى عاصمتهم، وأسس فيها إمبراطورية كبيرة تميّزت بالعمران والفنون والعلوم وإحياء التراث السومري الاكلدي.

وكانت اللغة الآرامية هي العامية عند البابليون، لكن اللغة الاكلدية هي اللغة المعتمدة في الدواوين الرسمية.

وبابل تعني (بوابة الإله) وهي (سومر) بلاد بين النهرين التي تقع جنوب بغداد اليوم، ويسميها الفرس (بابروش).

ولقد ظهرت الحضارة البابلية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد عندما بنى حمرابي بابل بهزيمته لآشور في العام مائة وست وسعبين قبل الميلاد، ليُصدر حينها شريعته وقانونه.

=

ومرت بابل بفترات حيث استولى عليها مارسيليس ملك الحيثيين. وبعد أربع سنوات استولى عليها الآشوريون عام ألف ومائتين وأربعين قبل الميلاد، وظهر الملك نبوخذ نصر كملك على بابل الذي استولى أيضًا على القدس التي تسمى (أورشليم) وسبى اليهود وجاء بهم إلى بابل، ثم هزم الفينيقيين وبنى حدائق بابل المعلقة.

ثم استولى الإمبراطور الفارسي (قورش) على بابل عام خمسمائة وثمانية وثلاثين في زمن الإمبراطور الكلداني (بلشاصر) وضمها لإمبراطوريته.

وكان من أعظم ملوكها حمرابي المشهور بقوانينه الذي توفي في عام ألف وسبعمائة وخمسين قبل الميلاد.

وأما في عصر الإمبراطورية الكلدانية في مرحلة الدولة البابلية الحديثة اشتهر الملك نبوخذ نصر كأعظم ملوك بابل.

وكان أول من أسس أسوارها هو الملك (سومو) الذي سماها (خيرات انليل).

والحضارة البابلية من أعظم الحضارات القديمة التي حققت إنجازات كبيرة في الفلك والرياضيات والطب والموسيقى.

ويعود الفضل في هذه الحضارة إلى الملك (حمرابي) سادس ملوك بابل الذي جعل لها مكانة تجارية حينما سيطر على الطرق.

ولكن تغيّرت الأحوال في عهد ابنه الملك (شمشو) حينما عم التمرد جميع زواياها، وبقية مدن الجنوب ليفقد السيطرة والقدرة على ضبط الأمور مما جعل أركانها تتضعضع، وجعل أركان حكمه تهتز مما أسهم في نهايتها على يد الملك (مورشيلي) الأول الذي غزاها وضَمها لحكمه، وظل حاكمًا عليها من عام ألف وخمسمائة وأربع وتسعين حتى عام ألف وستمائة وأربعة قبل الميلاد.

كانت تقف ماريا مع زينب التي التقت بها في المانيا قرب المتحف الذي عندما رأت فيه بوابة عشتار أيقظت فيها الذكريات القديمة ذكريات الرحلة إلى آثار بابل.[١]

لقد دخلت من (بوابة عشتار) مع معلماتها وزميلاتها في الدراسة حيث بدأت المعلمة تشرحها لهن، ثم لهت بعد ذلك مع صديقتها لتعثر حينها على خاتم يبدو من شكله أنه قديم جدًّا! تأملته ولَفَت نظرها الحجر الغريب الذي عليه! ثم وضعته في جيبها، وخطر في ذهنها أن تقدمه كهدية لأمها فور وصولها للمنزل.

---

[١] (بوابة عشتار) هي البوابة السادسة لمدينة بابل، والتي بناها نبوخذ نصر عام خمسمائة وخمسة وسبعين قبل الميلاد في شمالي المدينة كهدية حب لزوجته.

(وبوابة عشتار) الأصلية عثر عليها الألمان في العهد العثماني ونقلوها إلى بلدهم! ووضعوها في متحف (بيرغامون) في برلين!! ولا تزال موجودة فيه حتى اليوم!

والبوابة مصممة على شكل (آلهة الزهرة عشتار)، (وعشتار) عشيقة كبار الآلهة التي يرون أنها متحكمة في أمور البشر..

والبوابة مكسوة بالكامل بالمرمر الأزرق والرخام الأبيض والقرميد الملون، ومزينة بما يقارب ستمائة مجسم للحيوانات منها التنين (والسيروش والثيران)، وعلى جدرانها تماثيل جدارية تمثل الأسد والثور، والحيوان الخرافي المسمى (مشخشو) الذي يمثل رمز (الإله مردوك).

وتعد واحدة من عجائب الدنيا مثل منارة الإسكندرية.. وقد تم بناء مجسم لها في عهد الرئيس صدام حسين كمدخل لمتحف لم يكتمل.

وبعد أن قضين عدة ساعات في تلك الرحلة حان موعد الغداء حيث تناولن الكبة الموصلية وحلويات ومعجنات (الزلابية أو الزريابية).[١]

---

١ هي نوع من الحلويات سميت على اسم الموسيقي المعروف زرياب، وهو موسيقار وشاعر وعالم ظهر في العصر العباسي ما بين الأعوام سبعمائة وتسعة وثمانين حتى العام ثمان مائة وسبعة وخمسين هجرية.

ولأن صوته عذب وبشرته داكنة فقد لقب (بزرياب)، وهو نوع من أنواع الطيور أسود اللون عذب الصوت.

وبفنه شكّل حلقة وصل بين الحضارة الشرقية الإسلامية مع الأندلس ومنها إلى أوروبا والعالم أجمع، حيث كان له السبق بإضافة الوتر الخامس إلى آلة العود.

وهو مبتكر (الإتكيت) فن الذوق خصوصًا أنه كان رجلًا أنيقًا في كلامه ولباسه، وكان يضع على المائدة الكثير من المناديل بعضها لليدين، وأخرى للوجه، وأخرى أيضًا للشفتين.

ولم يكتفِ بذلك حيث لفت أنظار العالم إلى تخصيص مناديل خاصة بالنساء تكون مُعطرة ومُلونَة وصغيرة الحجم.

وهو الذي أدخل إلى أوروبا وجبات الطعام ثلاثية الأطباق والتي تبدأ:

١:بالحساء

=

٢: ثم يتبعها الطبق الرئيسي

٣: ثم تُختتم بالمكسرات أو الحلى أو الفواكه.

وكان له ذوق في تنسيق الموائد وتنظيمها وتزينها بالزهور..

وهو أول من ابتكر طعام (النقايا) وهو (نوع من المعجنات محشوة باللوز)، وهو أول من أدخل (الهليون) على المطبخ الإسباني.

وكان ذلك له الفضل في فخامة قصور ملوك الأندلس، وولائمهم المميّزة، وحتى ألعابهم حيث كان له الفضل في إيصال (لعبة الشطرنج) إلى أوروبا، وكانت تسمى حينها (الشاه مات).

وهو السبب في اختراع الموشحات وأدخل المقامات على الغناء في الأندلس، وافتتح الغناء بالنشيد، ونقل غناء النوبة من بغداد إلى الأندلس، وطريقة تطبيق الإيقاع الغنائي مع الإيقاع الشعري.

وهو أول من استعمل مضراب العود من قوادم النسر، وضع القواعد الأساسية للتلحين والغناء للمبتدئين.

بل إنه كان أول من أسس معهدًا للموسيقى في الأندلس، مكملًا بذلك نقل أوجه الحياة الحضارية التي كان ينعم بها الشرقيون في العهد الذهبي العباسي.

كانت معلمة التاريخ الثلاثينية سميرة -ذات الشعر البني والعيون البنية والأنف الدقيق والشفتين الممتلئة، ترتدي الحجاب، وتلبس السواد بسبب فقدها لزوجها الذي توفي في حادث- تشرح لماريا عن (زرياب)، وملامح من تاريخ العراق العظيم.

وبعد أن انتهت من الدرس ركبت ماريا الحافلة والسعادة لا تحتويها لأنها كانت تحمل معها هدية لأمها، وتتذكر تلك الفعاليات الجميلة التي عاشتها في الحافلة في أثناء عودتها للمنزل خصوصًا عندما رأت مدينة سامراء في شهر مارس من عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين. [١]

---

[١] سامراء مدينة تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في وسط العراق تابعة إلى محافظة صلاح الدين تبعد مائة وخمسة وعشرين كيلومترًا عن العاصمة العراقية بغداد. وهي إحدى المدن المقدسة للمذهب الشيعي إلا أن أغلبية أهاليها هم من طائفة السنة.

والخليفة المعتصم بالله ابن هارون الرشيد هو من بنى هذه المدينة في العهد العباسي عندما تولى الحكم على بلاد الرافدين ومصر وبلاد الشام بعد أن توفي أخوه المأمون في طرطوس.. وكان يستعين بالجنود الأتراك للفصل بين المنافسات الشديدة بين العرب والفرس.

=

وفي أثناء عودتهن اقترحت المديرة عليهن زيارة (الإمامين الهادي والعسكري).[١]

ومدينة (سامراء) كانت تسمى (سر من رأى) عندما تأسست قبل ألف ومائة وسبعة وخمسين، وتميّزت بالمنارة الملوية والتي تعد مَعلما عراقيًا مهمًّا، فهي منارة للمسجد الجامع الذي بناه المتوكل عام ٢٣٧هـ في الجهة الغربية من مدينة سامراء.

وكانت حينها من أكبر المساجد في العالم، وتتكون من قاعدة عريضة، ويُقدر ارتفاعها بثلاثة وثلاثين مترًا، وملامحها على شكل طبقات في أسفلها كبيرة، وفي أعلاها تكون أصغر شيئًا فشيئًا.. وتوجد صورتها على العُملة العراقية.

وهناك جامع آخر بناه المتوكل ويسمى اليوم (أبو دلف) على أحد قادة الدولة العباسية وهو القاسم بن عيسى بن معقل العجلي، ويقع شرق مدينة سامراء، وبنيت منارته على شكل حلزوني يشبه الأبراج البابلية المدرجة (كالزقورة).

[١] علي الهادي هو عاشر أئمة الشيعة، وهو حفيد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبعد ولادته في المدينة المنورة عاش في قرية صريا التابعة لمدينة سامراء، وفيها قبره الموضوعة عليه قبة مغطاة بالذهب الخالص نراها حتى اليوم.

وقد دفن معه فيها ابنه الحسن العسكري الذي يجاوره في ذات الضريح تحت ذات القبة التي بُنيت في عام ألف وتسعمائة وخمسة من الميلاد، وتمت تغطيتها باثنين وسبعين كيلو من الذهب الخالص.. وكان أول من بناها هو شقيق سيف الدين الحمداني في العام تسعمائة وسبعة وستين ميلادية.

وفي الطريق تفقَّدت ماريا الخاتم الذي كان في جيبها، ومن شدة شغفها به شعرت بها صديقتها زينب التي بادرتها بسؤال عن سبب قلقها؟ ولكنها أجابتها بأنها مستمتعة بالرحلة التي رأت فيها أماكن لم ترَها من قبل، وأكدت لها أن الأمر طبيعي جدًّا.

ورغم أنها مسيحية إلا أنها التزمت بزيارة هذه الأماكن المقدسة عند المسلمين، ولذلك وضعت حذاءها بعيدًا حينما أخذتها الخُطى نحو زيارة الأضرحة.

كانت كلما نزلت مع الطالبات إلى مزار وعادت معهن للحافلة تكرر المديرة أسماء الطالبات لتتأكد من حضورهن جميعًا، وكان سائق الحافلة رجلًا في متوسط العمر، ذا لحية امتزج فيها الشعر الأبيض مع الأسود، يرتدي كوفية بيضاء قديمة، ويلبس (دشداشة) بيضاء قديمة أيضًا.

وعندما كانت مع صاحباتها يغنين للسائق ويرددن:

(هذا سائقنا الورد هسة يوصلنا ويرد)

وقفت أمامهن بقرة كادت أن تؤدي بحياتهن لولا لطف الله، وتتذكر ماريا صرخة السائق حينها وهو يحمد الله على حفظه لهم من موت محقق.

كانت الحافلة تتجه نحو الشمال، وعندما اقتربوا من أرض مرتفعة على شكل هضبة، أمرت المديرة السائق بالتوقف بجوار بناء قديم يبدو كقصر أحد الحكام القدامى، وقالت لهن: الآن وصلنا عند

(العاشق)! [١]

لقد استغلت جمال المكان وغرابته فبدأت تلعب وتمرح مع صديقاتها وكان الهواء يداعب خُصلات شعرها، وفي أثناء انغماسها في اللعب نزلت إلى أحد طوابق القصر السفلية بدافع الفضول لتشعر بشيء غريب! وكأنها رأت فيه كنزًا من الذهب! ثم ما لبثت أن عادت أدراجها وصورة الإحساس الذي شعرت به لا تفارق ذهنها!

سرحت بأفكارها كثيرًا متسائلة: هل يمكن أن يكون ذلك كنزًا يعود لمن بنى القصر؟ ولكن أوقف أفكارها صوت المديرة تنادي الجميع لركوب الحافلة في توقيت كان غاية في الروعة، حيث غشتها نسائم الربيع المنعشة، وتلبد الغيوم في الجو لتشعر بأن وجهها قد رُسم في تلك السماء البهيجة.

كانت تتأمل السماء الجميلة في وقت الغروب من نافذة الحافلة وبجوارها صديقتها زينب النائمة، فاستغلت اللحظة لتتأمل الخاتم

---

[١] قصر العاشق يقع على بعد تسعة كيلو في الجانب الغربي من مدينة سامراء، بناه الخليفة العباسي المعتمد بالله، ويتكون من طابقين، ويأتي بشكل مستطيل وحوله ساحة واسعة مسورة وحول السور خندق، وقد تآكل حينها الكثير منه لقِدم بنائه الذي كان في عام ثمان مائة وسبعين ميلادية.

ويسمى أيضًا (قصر العاشق والمعشوق) وقصة هذا الاسم تعود إلى أن الأمير المعتمد قد عشق أميرة عباسية كان منزلها غرب سامراء، فبنى قصرًا قرب منزلها، وكان يراقبها كل يوم من هذا القصر، وكان كل يوم يزداد عشقه لها، وعندما خطبها جعل القصر مهرًا لها وأطلق عليه هذا الاسم.

الذي أخرجته من جيبها حتى غشاها النوم لتستيقظ عند الوصول.

وعندما طرقت باب منزلها رحب أبوها بمعلمتها وبها، وكان قد خرج إليهما وهو يرتدي (الدشداشة) العربية وعلى رأسه (الكوفية)، ودعا المعلمة للدخول ولكنها شكرته وغادرت.. ثم أنصتَ بكل الحب لماريا وهي تسرد تفاصيل رحلتها المدرسية.

ولأنه عسكري سابق فقد كان شديدًا قويًّا، ولكنه كان أيضًا طيب النفس، متواضعًا جميل المحيا، عريض المنكبين، يميل قليلًا للبياض، واسع العينين، شعره أسود، عينه سوداء، صوته قويًّا.

وكانت من حبها له تلجأ إليه في كل وقت، فيبادرها بحنانه ولطفه، ويحكي لها القصص، ويمنحها الهدايا.

وكان منزل أهلها صغيرًا جدًّا إلا أنه كان مليئًا بالسعادة حيث كان يحتوي على غرفتين وحمام شرقي وباحة صغيرة وغرفة جلوس صغيرة جدًّا، وكانت غرفتها تتكون من سرير متواضع، وخزانة حديدية، وسجادة صغيرة، ومدفأة حديدية، وفي الغرفة شباك يُطل على بهو المنزل.

ثم أخذت ماريا الخاتم وضمت عليه أصابعها وجاءت به إلى أمها التي كانت جميلة بيضاء ذات عيون ملونه وبشرة صافية، وشعر جميل، رشيقة القوام، متوسطة القامة ذات صوت جميل، ولذلك كانت تغني لهم في بعض الأحيان بعض الموحشات.

حضنت أمها وتحاورتا معًا بحضور أبيها عن تفاصيل الرحلة التي رأت فيها إرث أجدادها العظيم في أرض الحضارات العراق المجيد.

ثم وهبت الخاتم لأمها، وحينها طلب أبوها رؤية ذلك الخاتم الغريب! وشرع في تأمله، وكان متعجبًا من الفُص الذي عليه!

مما دفعه إلى التفكير في سؤال الصائغ يوسف الصابئي عن سر ذلك الفُص! فهو قريب منهم لكونهم كانوا يسكنون في (محلة حوش خان)[١] والتي كان غالب سكانها من الطائفة المسيحية وتحديدًا من (السريان).

وخافت حينها أمها من الاحتفاظ به بسبب صورتها الذهنية التي تكونت في طفولتها من خلال قصة القلادة المشؤومة التي أهداها هارون الرشيد لزوجته زبيدة، والتي ترتب عليها شؤم كبير، لم تشأ أن تحكي تفاصيله لماريا حينها.

وعندما ذهب أبوها بالخاتم إلى الصائغ تخيّلت المناطق التي تسكن فيها والولاية كاملة، وكأن تاريخ أهلها كاملًا قد كتب عليه.

---

[١] كانت المنازل في (محلة حوش خان) صغيرة، وكانت تحتوي على محلات متوسطة الحجم وتوجد عدة كنائس فيها أشهرها كنائس (ماريوسف والطاهرة القديمة).

ومن معالمها جامع الشيخ عبد الله خان، وجامع مريم خاتون، وسوق الصاغة، وسوق باب السراي، وقسم من شارع النجيفي وشارع غازي وشارع خالد بن الوليد المفتي وسوق الصفارين، وكانت الحمامات قديمًا توجد في الأسواق.

وكان فيها قديمًا جسر واحد بسيط جدًّا يسمى جسر الموصل، وفي عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين افتتح الجسر الحديدي، وكان يحيط بها قديمًا سور بقربه قلعة تسمى قلعة (اشطابيا).

تذكرت حينها تلك القصة التي حكتها لها أمها عندما كانت صغيرة وهي قصة القلادة المشؤومة[١]

---

[١] تسمى القلادة المشؤومة (بعقد مردوخ) وهو عقد ثمين جدًّا مُرصّع بالأحجار الكريمة صنع قبل ثلاثة آلاف سنة، وقد كتب عليه مجموعة من الطلاسم والنقوش الغريبة التي يعتقد أنها كانت تخص أحد كهنة (معبد مردوخ).

وكان يحيط به شؤم غريب حيث كلما ارتداه شخص إما أن يقتل أو ينتحر! ولقد أهداه ملك الروم إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد مع كثير من الحُلي والجواهر، والذي بدوره أهداه إلى زوجته زبيدة ولم ترتدِه قط! فقد وضعته في صندوق دون أي سبب واضح، ويعتقد أنها انزعجت من طلاسمه المرسومة عليه. وبعد وفاتها حصل عليه الخليفة الأمين والذي أعجب به كثيرًا وارتداه لفترة، وعند هذه النقطة تحديدًا بدأت اللعنة! فقد قُتل الأمين على يد طاهر بن الحسين. والذي استولى بدوره على ممتلكات الأمين التي فيها العقد، وارتداه، ولم تمر عدة أيام حتى قتل طاهر بن الحسين.

وحفظ في خزينة المعتصم الذي هلك على يد هولاكو هو عائلته، فحصل هولاكو على العقد وأهداه إلى عشيقته (فانسا) التي كانت متزوجة من أحد قادة جيشه، وفور ارتدائها للعقد علم زوجها علاقتها بهولاكو وقتلها فورًا!!

ثم أخذ القائد العقد وقتل في عين جالوت بقيادة قُطز، المعركة التي انتصر فيها المسلمون، وبعد فترة اغتيل السلطان قطز!

كان الصابئة يتميزون بمعرفتهم في فك طلاسم الفصوص والأحجار الكريمة، وبعد أن سلّم عليه جلس على كرسي في محل الصائغ الضيّق، وفي أثناء عمله بدأ يتجاذب معه أطراف الحديث، وأكد له بأن أسباب غيابه الطويل عنه تعود لكونه يعمل في الجيش، ويقضي فترات طويلة في المعسكرات التي ازدادت إبان الحرب العالمية الثانية، والتي جعلتهم حينها يركزون على تخزين المؤن والأغذية تحسُبًا لأي طارئ!

وبيّن له الصائغ بأن ارتفاع أسعار الذهب أسهمت في نقص زبائنه، ثم واصل تأمله للخاتم الذي كان يحاول فك طلاسمه، وحينها قال له: مكتوب عليه من جهة ختم دولة قديمة، قد يكون ختم الدولة (السومرية أو الآشورية)، ومن الجانب الآخر كتبت عليه حروف غير معروفة، ثم طلب منه أن يُبقيه عنده ليبحث في كتاب فك الطلاسم عن الحل، فوافق على طلبه فورًا، وودعه ومضى إلى شأنه.

في طريق عودته إلى المنزل مرّ بالكنسية وأدى الصلاة، وأشعل الشموع، وسمع التراتيل التي كانوا يتلونها على روح أحد الموتى.

عندما وصل إلى منزل أهل زوجته قبّل رأس أم زوجته التي كانت ترتدي الرداء الأسود، وتضع على رأسها وشاحًا أبيضَ يشبه بشرة وجهها، وكانت عيونها زرقاء قد غارت قليلًا من تجاعيد الزمن.

سألته عن أحواله والعائلة فرد عليها بأنهم جميعًا بخير، ثم أخبرته بأن ظهرها يؤلمها فأخبرها عن صديق له مسلم مستعد أن

يعمل لها حجامة لكي تتخلص من الألم، ووعدها بالعودة لها لكي يذهب بها إليه من أجل الحجامة.. ووعدها أيضًا بجلب الكثير من السلع الأساسية لها في وقت قريب.

عندما عاد إلى منزله وبعد ترحيب عائلته به أخبرهم عن مروره بأهل زوجته واطمئنانه عليهم، وبشرهم بأن سرّ الخاتم سيظهر قريبًا.

ذات الليلة رأت ماريا في نومها السيدة مريم العذراء وأعطتها الخاتم نفسه الذي وجدته! ثم غادرتها وسط النور، لتفزع من نومها وتدرك حينها أنه مُجرد حلم.

وبعد أن رأت أمها الخوف باديًا عليها حضنتها، وحدثتها ماريا عما رأت لتضحك وتقول لها: "هذه بشارة عظيمة"، وتعدها بزيارة أم صادق مفسرة الأحلام في أقرب فرصة لاستيضاح تلك الرؤيا.

كانت الأجواء حينها في شهر مارس جميلة، حيث من العادة أن يذهب أبوها إلى عمله صباحًا، في حين تُحضر أمها الغداء، وتعتني بالمنزل، وتحتسي القهوة، وتقرأ بعض الكتب.

وحينما تذكرت حلم ابنتها تركت قهوتها، ولبست ملابسها، وذهبت إلى بيت مفسرة الأحلام أم طارق التي رحبت بها، وأظهرت اشتياقًا لها بعد فراق طويل، ثم حدثتها عن حلم ابنتها ماريا، لتُبشرها بأنها ستجد بإذن الله حظًّا جميلًا ورزقًا وفيرًا، وقد تكون صاحبة شأن في المستقبل هي أو زوجها، أو قد يرزقها الله بولد أو بيت

جميل.

سرّت أم ماريا أيما سرور بهذه البشائر الجميلة، وشعرت في قلبها بسعادة غامرة، ثم قدّمت لها الضيافة التي كانت عبارة عن شاي أسود وبعض الكعك والمعجنات الموصلية التي صنعتها في التنور الذي كان مصنوعًا من الفخار (وتسمى عروق بالتنور، وهي من الدقيق واللحم المفروم والبصل والخضر المفرومة يتم خلطها وخبزها على شكل أقراص).

وبعد فترة قصيرة استأذنت منها لكي تعود إلى منزلها، وبعد وصولها بوقت قليل دخلت ماريا التي بادرتها بسؤال مباشر حول نتيجة تفسير الحلم، وعندما بشّرتها به طارت فرحًا.

كان أبوها في طريق عودته من العمل قد مرّ على الصائغ وأخذ منه الخاتم الذي كان قد كتب عليه (خاتم الحظ السعيد).

وعندما وصل إلى المنزل كانت ماريا قد تلقفته بالأحضان فرحًا ببشارة الرؤيا، وترقبًا لمعرفة سر الخاتم!! وبعد أن جلسوا أخبرها بأن الخاتم عليه رسومات من العهد الآشوري أو السومري، ومعاني الطلاسم التي كتبت عليه هو حظ السعادة لمن يحمله.

بعد هذه الكلمات والبشائر لم تعد الأرض تحمل ماريا من شدة الفرح والسرور، كانت تُقبّل أبويها بشغف طفولي وبسعادة غامرة، وحينها قالت لها أمها بأن الخاتم يُذكرها بأكبر حجرة الماس وجدها

حكام (الهندوس) في الهند في عام ألف وثمانمائة وسبعة وسبعين،[١] وبيعت للتاجر البريطاني حيث كانت تزن مائة وخمسة قيراط، أي ما يُعادل واحدًا وعشرين جرامًا فاصلة ستة.

---

[١] تتميّز الهند بالأحجار الكريمة، حيث كان حكامها يتميّزون ويتنافسون على امتلاكها، وكانت عظمة الملك حينها تقاس بما يملكه من مجوهرات، وأحيانا القادة يقدمونها للملوك أو يحصلون عليها على شكل غنائم.

ويقال إن هذه الماسة مليئة بالأساطير، حيث يعتقد أن إله الشمس هو من قدمها هدية للأرض (وكوهينور) تعني (المغول الأكبر) وهو اسم الماسة وهي لا تُقدر بثمن.

وتاريخها الحقيقي بدأ في عام ألف وخمسمائة وثلاثة وعشرين عندما امتلكها حاكم عرش نيودلهي الذي انتهى على يد المغول نتيجة لخيانة رجاله بسبب قسوته عليهم.. والمغول احتلوا بغداد وحرقوها بل دمروا كل شيء بها حتى الكتب لم تسلم من أيديهم القذرة!

ثم انتقلت الماسة إلى (شاه شجاع) الذي أرسل زوجته ومعها الماسة إلى (المهراجا سينغ) في لاهور، وصلت وفاء وبعد أن سمعت بأسر زوجها عرضت عليه الماسة مقابل فك أسره، أطلق سراحه (شاه شجاع) وأعطته وفاء الماسة، وقام بدوره بترصيع عمامته بها، وبقيت (الكوهنور) لديه لمدة عشرين سنة إلى أن تبرع بها لمعبد (جاغاناث)

وفي ألف وثمانمائة وتسع وأربعين سلمت للبريطانيين وفق اتفاق ومعاهدة بعد الحرب البريطانية ضد السيخ.

ثم استلم (لورنس) الماسة ووضعها في جيبه ونسيها، ثم وجدتها الخادمة وأعطته الماسة، وأعاد إرسالها إلى إنجلترا في عام ألف وثمانمائة وخمسين وسلمت إلى (الملكة فكتوريا) بعدها، ثم وضعوها بعد ذلك في التاج الملكي البريطاني في خزانة في برج لندن حتى الآن.

كانت أم ماريا ريتا تتحدث عن الأحجار الكريمة التي قالت بإن لها طاقات غريبة جدًّا، حيث لكل برج من أبراجنا الفلكية حجر يتلاءم معه، ومنها من يجلب الحظ، ومنها ما يجلب النحس.

ليُعلّق عليها زوجها بأنه يتمنى أن يكون الخاتم خاتم خير وتفاؤل وأمل..

ثم تناولوا وجبة الغداء وهي (الباجا)[١]

وكانت ريتا في أثناء الغداء تذكّر زوجها ببدايات زواجهما عندما تعلّمت من أجله طريقة إعداد (الباجا) من أمه، ليؤكد لها بأنها قد أصبحت تُعدها بشكل أفضل.

"وكأن الطالب تفوق على المدرس" قالها ضاحكًا.

كانت حينها الأجواء ربيعية جميلة، وعندما بدأت الأمطار بالهطول فتحت ماريا نافذتها، وطفقت تُلملم قطرات المطر بكفوفها الصغيرة الجميلة.

وعند نهاية المطر استيقظ أبوها من غفوته، وطلب من أمها إعداد الشاي مع (الحبهان)، وبعض الفطائر المحشوة بالجبنة بمناسبة هطول المطر حيث جلسوا جميعا في فناء المنزل المبلل والمُعبّق برائحة المطر المُنعشة.

---

[١] (الباجا) هي أكلة شعبية عبارة عن طبخ أجزاء من الخروف بطريقة معينة، وهي أكلة تُطبخ بشكل نادر لكنها لذيذة جدًّا.

كان حينها كل شيء جميلًا منعشًا بالحياة، حتى الأشجار أصبحت ألوانها لامعة، وأفرزت الورود والفل روائحها العطرة النفّاذَة.

وضعت ماريا إبريق الشاي على (السماور) وهي آلة كانت تستخدم قديمًا لكي يبقى الشاي حارًّا، ثم وضعت الفطائر مع قليل من النعناع والزيتون، ثم شرعوا في تجاذب أطراف الحديث.

وفي أثناء حديثهم طرق الباب، وبعد أن فتح أبوها الباب عانق أخاه أيوب الذي بدوره سلّم على أمها وعليها، وقال لها إنها كبرت مما جعل السرور يظهر عليها.

جلس أبو ماريا مع أخيه يتبادلان أطراف الحديث، فقال له أيوب بأنه ينوي بيع بيته!

ليتعجب منه أبوها الذي عندما سأله عن السبب رد عليه بأنه قد استخرج سندًا جديدًا من (دائرة الطابو) لأرض في منطقة (كرادة مريم) تقدر مساحتها بثلاثة آلاف متر مربع لهم كورثة، واقترح عليه اقتسام الأرض بينهما لكل واحد منهما ألف وخمسمائة متر منها.

حينها فقط تمتم أبو ماريا وقال في نفسه: "هذه أولى بشائر الخاتم!"، ثم اقترح عليه أن ينقل عمله إلى بغداد ليجاوره فيها، ولكنه رد عليه بأنه يفكر في الموضوع، وشرع في التغّزل في مدينة الموصل التي يعشقها.

وبعد أن أتما الحديث في الموضوع جاءت أم ماريا بقدح العصير ووضعته على الطاولة، ثم جلست بجوار زوجها الذي بشّرها بالخبر،

وكشف لها عن الإرث الكبير الذي لم يكن في حُسبانهم جميعًا، ثم همست في إذنه بأن يتم الحديث لاحقًا في الموضوع لأنها تذكرت أنه لو تم الأمر فستبتعد عن أمها وأختها ومدينتها التي عاشت وترعرعت فيها!

ورغم أنهم أصروا عليه أن يبقى حتى العشاء أو المبيت كعادة كرم أهل العراق إلا أنه رفض ذلك بحجة أن صديقه قد دعاه قبلهم للعشاء والمبيت، فذهب إليه مُحملًا بالهدايا.

بعد ذهابه ظلّت أم ماريا جالسة في مكانها يعلو الفرح على وجهها، وكانت تقول بكل سعادة إن كلام الصائغ عن أسرار الخاتم صحيحًا، وتؤكد على الاحتفاظ به كالفانوس السحري في القصص الخيالية الذي يُعد مفتاح الحظ والرزق.

توافق معها زوجها على حفظه مع مجوهرات زواجهما، ذلك الاقتراح الذي ذكّرهم ببدايات حياتهما الزوجية، مما جعلهما يتبسمان عند غروب الشمس.. ثم تفقدت الأم أحوال بنتها ماريا الدراسية.

وفي صباح اليوم التالي نهضت أمها وأعدت الإفطار الذي كان بيضًا مسلوقًا مع الخبز الحار الذي جاءت به من الفرن الحجري القريب من منزلهم، ومع الشاي تناول الجميع الإفطار.

ذهبت ماريا إلى المدرسة وصبّحت على زميلاتها فاطمة وعائشة ولميس ومريم، ورغم أنها كانت تُلاعبهن وتُمازحهن إلا أنها كانت هادئة بعض الشيء، وتتفوّق في جميع المواد عليهن.

كانت المدرسة موجهة للطلاب من جميع الأديان، وكانت حصّة الدين موزّعة بإتقان على المسيحيين والمسلمين لتلَقّي دينهم مع زملاء غيرهم من صفوف أخرى، ويحفظون القرآن والأحاديث النبوية.

وأما المسيحيون فكانت تدرسهم على تعليم الإنجيل راهبة تلبس لباسًا خاصًّا مكونًا من قطعة قماش أسود وأبيض على الرأس ولباس أبيض.

كانت تلك الراهبة مميزة كما تقول ماريا التي تعلّمت منها جميع طقوس وتعاليم الإنجيل الذي يدعو إلى السلام، ولقد حدثتها صديقتها عائشة عن دين الإسلام دين الرحمة والسلام والتسامح والتعاون.

تقول ماريا إنها أُعجبت بالدين الإسلامي كثيرًا، وأكدت بأنها لولا التقاليد والعُرف القائم عند المسيحيين لتركت دينها ودخلت الإسلام، حيث كانت تفكر في جميع الأديان، وتراها تكمل بعضها البعض.

تتذكر أنها ولدت في عائلة مسيحية الذين عمدوها عند الكنيسة التي منحتها اسمها، وترعرعت في طفولتها تذهب كل يوم أحد مع أهلها إلى القداس، مما جعلها تتعلم عزف تراتيل مريم العذراء على البيانو، وتشعل الشموع، وتطير كفراشة في عالم من التخيلات وكأنها تُراقص الموسيقى لتُنبهها صديقتها إلى قُرب بدء حصة الدرس مما جعلها تستعيد وعيها.

كانت مع صديقاتها يُقلدن طريقة المدرسات في أثناء إلقائِهن للدروس، وكانت إحدى صديقاتها تُتقن ذلك التقليد، ويقابلنها بالضحكات المُجلجلة التي جعلت المديرة تنتبه لهن وتهددهن بالعقاب.

ولأن ماريا لا تعرف الكذب فقد اعترفت للمديرة بأن واحدة من الطالبات قلّدتها، وكان اعترافها بعد تعهّد المديرة لها بأنها لن تؤذيها، وقد تألمت كثيرًا من أجل صديقتها التي عنّفتها المديرة ووبختها، ولكنها اعتذرت لها بعد ذلك، وكان ذلك درسًا جعلها تعي مسؤوليتها عن كل قرار في حياتها تتخذه بعد ذلك.

ولأن ضميرها حيّ فلم تكتفِ بالاعتذار إذ ظهر الحزن بشكل بادٍ على وجهها عند عودتها للمنزل مما جعل أمها تسألها عن سبب بكائِها وسر حزنها، مما جعلها تحكي الموضوع كاملًا لها، ثم خففت عليها بأنها لم تقل سوى الصدق، وأن الأمر انتهى باعتذارها النبيل.

ثم دعتها لمشاركتها بالأفكار في التخطيط لعيد ميلادها العاشر والذي يصادف اليوم الرابع من الشهر الرابع وهو ربيع الثاني، وقد اتفقتا على إعداد كيكة بالتمر والفستق الحلبي، وإعداد عصير التوت، وتهيئة الشموع والأغاني الموصلية.

وفي عيد ميلادها لن تنسى مفاجأة أمها لها حينما منحتها هدية خاصة بها عبارة عن قطعة ذهبية عليها اسمها تبقى ذكرى لها ولأبنائها لاحقًا.

عندما ذهبت إلى المدرسة حملت معها الكيك الذي احتفلت به مع صديقاتها، وبهذه المناسبة قدّمت إحدى الأمهات دعوة لأم ماريا على عرس موصلي وتحديدًا مناسبة الحنة[١]

---

[١] مناسبة (الحنة) هي تقليد يقام قبل العرس بيوم، حيث تدمج حنة الفاو مع نبات الياس، ويوضع من المواد سبع بياضات كل مادة لونها أبيض في إناء، وتوضع كلها في إناء يسمى (الصينية) ومن ثم يوضع عليها ماء الورد (والحبهان)، وسكر يسمى بالدارجة (شكر كلا) وهو سكر خام لم يصنع بعد، ثم يوضع (الحبهان) بين أصابع العروس، ومن ثم تعمل الحنة على أياديها وأقدامها عن طريق أقرب امرأة من العروسة.

ومن ثم تبدأ الأهازيج والفرح، وتدار الحنة على الكل من النساء، ويوضع القليل من الحنة على أيدي المدعوين، ثم تضع اثنتين من صاحبات الحظ قطعة قماش على رأس العروس، ويرقصن ويغنين.

ومن التقاليد أن يُولِم أهل العروس وليمة غداء لأهل الحي في اليوم التالي للحنة، ويتعاون الجيران معهم في ذلك.

وبعد انتهاء سهرة ليلة الحنة يذهب العريس إلى حمام السوق مع أقرب أصدقائه، ويذهب إلى الحلاق، ويُلبد أحد أصابعه بالحنة.

ومن العادات أن العروس تكون لها غرفة في بيت أهل زوجها، وتبقى معهم حتى ولادتها لطفلها الثالث، وحينها عندما تكون لديهم إمكانية اقتصادية جيدة ينتقلون لبيت مستقل.

=

والحمام الذي يذهب له العريس من ضمن الحمامات القديمة، ومنها (حمام عبيد أغا) الذي يشبه حمامات الشام وتركيا، والتي يسمى الغسال فيها (الدلاك) الذي يعطيه العريس هدية بسيطة تسمى (البخشيش).

وقبل الزفاف يشتري كل من العروسين الهدايا للآخر، ويسمى (الحمالة أو الجهاز)، ويشمل كل شيء من الملابس وأغراض المنزل، والتي يتم نقلها على العربات التي تجرها الخيل وتمر عبر الأزقة بين المنازل، وكل زقاق يمرون منه ينثر أهله عليهم الورد وماءه.

وبعد أن يلبس العريس الحلة الجديدة يزفونه إلى بيته بالأهازيج وقرع الطبول، ويرددون بعض الأهازيج التي شيء منها يعود للثقافة التركية، والتي يقولونها باللهجة الموصلية مثل: (هناك رجل أحب امرأة وبعث لكي يخطبون له أجابه ورد الحق صاق النصيب).. ويقدم شراب (الدارسين) للحضور.

لقد كانت ليلة لا تنسى عاشتها ماريا وهي تلعب مع صديقاتها في باحة منزل الفرح، وبعد وقت ممتع وبهيج عادتا إلى المنزل الذي عندما دخلاه مشيا على رؤوس الأصابع لكيلا يوقظا الأب الذي سألهما في اليوم التالي عن سبب تأخرهما، فردت عليه أمها بأن البلاد آمنة، والحفلة كانت ممتعة.

وكان ذلك اليوم يوم جمعة مما جعل أم ماريا تصنع لهم طعام (الدولمة).[١]

ولكنها في أثناء ذلك شعرت بحرارة عالية في جسمها ورشح شديد مما جعلها تلجأ إلى الغرغرة بالماء والملح وشاي الأعشاب، وتناولت حساء الدجاج بالخضار، وظلت على ذلك لمدة ثلاثة أيام حتى اختفت الأعراض نهائيًّا.

لم يكن حينها قد توفرت المضادات الحيوية مما جعل الجميع يلجأ إلى صيدلية الطبيعة، وكانت أجسادهم حينها أكثر مقاومة للأمراض.

مرت الشهور في سلام حتى حانت امتحانات ماريا التي كانت تحضر لها جيدًا، فتراجع جميع المواد، وتقرأ كل الكتب لتحصل على الدرجة الكاملة في جميع المواد، وتحقق المركز الأول على الصف.

---

[١] (الدولمة) هي محشي ورق العنب كما تعمل البازلاء المسلوقة وتسمى (تشريب باقلاء) باللهجة العامية، وعادة تؤكل في الجو البارد.

كانت أمها تتذكر الخاتم دائمًا عند نجاحاتها، ولكنها كانت محتارة عن سر تفوقها الذي يكمن إما في اجتهادها، وإما في الخاتم السحري.

تتذكر حينما وعدها أبوها بمناسبة الأجازة بزيارة إلى بيت عمها في بغداد مما جعلها تقفز من الفرح، فهي متشوقة جدًّا لزيارة أبناء عمها.. انطلقوا جميعًا تِلقاء بغداد في طريق طويل حينها بسبب ضعف إمكانيات السيارات عكس وقتنا الحاضر.

كانوا يحملون معهم بعض الهدايا كالحلويات الموصلية وبعض أغراض المنزل، وعند وصولهم رحّب عمهم بهم كثيرًا، ورحب أبناؤه بماريا التي كان أحدهم يكبرها بخمس سنوات، والآخر يكبرها بعام واحد.

ومن كرم أهل بغداد حينها أن تتوالى دعوات أهلها على الضيف فيتغدى أو يتعشى يوميًّا في منزل إحدى العائلات.

وكانت زوجة عمها امرأة جميلة، ولذلك كانوا يسمونها سندريلا عندما تسير على الأرض وكأنها أميرة الملوك.

وكانت أيضًا مثقفة جدًّا حيث اتقنت عدة لغات هي الفرنسية والإنكليزية والعربية فهي خريجة مدرسة مدام عادل الأهلية.

واجتمع أبناؤها في غرفة، وتركوا بقية الغرف لماريا وعائلتها الذين أمضوا شهرًا عندهم بسبب انشغال أبيها بموضوع الأرض التي ورثها من أبيه، حيث باع ثلث أرضه بسعر جيد، وشرع في بناء ما

تبقى منها بمساعدة أخيه الذي ترك له العناية بمتابعة البناء في غيابه أثناء عودته للموصل.

وبعد فترة من عودتهم من بغداد فتحت المدارس أبوابها، لتذهب ماريا وهي تلبس هدايا أبيها، وتتباهى بحقيبتها وملابسها أمام زميلاتها اللائي عانقتهن كثيرًا فرحًا واشتياقًا لهن.

وبعد أن رفع العلم تحدثت المديرة في كلمة بداية العام والتي تضمنت الكثير من الثناء للطالبات، ووضحت لهن أهمية الالتزام بالزيّ الموحد، والنظافة الشخصية، وعدم تطويل الأظافر، ومنع طلائها، والالتزام بموعد الدوام، وعدم الخروج أو الهروب قبل نهاية الدوام، ومتابعة الواجبات الدراسية من أول يوم.. ثم وزّعت المعلمات من حيث الإرشاد الصفي على كل صف معلمة تكون هي المسؤولة عن طالباتها ومشكلاتهن.. لقد كانت مديرة رائعة وأمًّا للجميع.

وبعد أن ذهب كلٌّ إلى صفه وفصله جلست ماريا على كرسيها في الصف الأول لكي تكون في أقرب مكان من المعلمة، وبعد توزيع الكتب نالت حصتها من كُتبها في آخر مراحل الدراسة الابتدائية.

شرعت المعلمة بلقيس في التعرّف عليهن وعلى أسمائهن، ودار حوار بينهن حول الأجازة وفي أي الأماكن قضينها، وحينما جاء دورها تحدثت ماريا بكل شغف عن أجازتها التي استمتعت بها كثيرًا.

وعندما عادت إلى منزلها باركت لها أمها على الكتب، وحضنتها، وغلّفت معها الكتب، ثم تهيؤوا لتناول طعام الغداء الذي كان عبارة

عن السمك المشوي، والخبز الحار والذي يسمى (المسكوف)[١]

ونامت بعدها لتوقظها أمها عند الغروب لتجلس مع أبويها في الجلسة المسائية المعتادة، والتي تدور فيها الكثير من الحوارات العائلية المميزة.

مضت الأيام ليأتي الشتاء مجددًا بلياليه الباردة ونهاراته الممطرة، واستعدوا لعيد (الكريسمس) بالرسم على البيض، وتزيين شجرة الميلاد، وبدأت أمها في خياطة زيّ (بابا نويل) بلحيته البيضاء من القطن، ولباسه الأحمر يحمل كيسه المملوء بالهدايا مثل ألعاب الأطفال، والحلويات، والنقود.. ويوزّعه على أطفال المحلة.

ثم ذهبوا لزيارة الكنسية وحضروا القداس، وكان كل واحد منهم يقبل ويصافح الأقارب في مشهد احتفالي جميل لبس فيه الجميع الأزياء الجديدة، وأشعل فيه الكل الشموع.

ثم شرعوا في الاستعداد للاحتفال بالعام الجديد حيث ذهبت مع أمها إلى حمام (الكش)[٢]

---

١ (المسكوف): سمك نهري من أنهار عراقنا الحبيب يتم شواؤه بطريقة يتم فيها تعليق السمك على بعد خمسة عشر سنتيمترًا من النار، ويتم شواؤه بطريقة بطيئة جدًّا.

٢ (حمام لكش) كان أول حمام في الموصل، وكان يفتح أيامًا من الأسبوع للرجال، وأخرى للنساء. كما كان هناك حمامات صحية للمياه البركانية تدعى بحمام العليل، وتعد مياهه علاجًا للمرضى من ألم المفاصل والعظام.

ورغم أن الحياة حينها كانت بسيطة إلا أن الحب كان منتشرًا في القلوب، والتكافل الاجتماعي يظهر فيه التضامن بين الجميع، فلم يكن التفرق موجودًا حينها بين الأديان والطوائف، فالمجتمع كالجسد الواحد.

أخذتا الحلويات وذهبتا بالهدايا إلى منزل جدتها وخالتها ليحتفلا معًا بالسنة الجديدة، وقبّلت أمها رأس جدتها التي أظهرت لهن التسامح، وأكدت لهمن رضاها التام عنهن، وأوصت بمنزلها -أمامهن- لهن، ودعت أمها لجدتها كثيرًا بالصحة والعافية.

وبعد عودتهما إلى منزلهما عند الغروب وفي منتصف الليل جاءهم أحد جيرانهم وأخبرهم عن تعب الجدة! ففزعوا لها سريعًا، وعند وصولهم وجدوا خالتها غارقة في دموعها بسبب فراق أمها!! بادروا بتغسيلها وحملها مع الجيران إلى الكنسية من أجل إلقاء النظرة الأخيرة عليها قبل دفنها، وتلّقي واجب العزاء فيها.

ومن شدة صدمتها قالت خالتها لأمها إنها لا تريد شيئًا من إرث أمها، وأفصحت لها بأنها ستذهب إلى الدير لتصبح راهبة، قالت ذلك وفعلت حيث نذرت نفسها لخدمة دينها، شِعارها في ذلك العفة والفقر.

وأما والدتها فقد باعت بيت أمها، وتبرعت بشيء من المال للفقراء صدقة، والجزء الآخر اشترت به أرضًا في الموصل في مكان تجاري يُنذِر بمستقبل رائع.

لقد تعاهدت أمها بزيارة جدتها حيث كانت تذهب كل يوم أحد إلى الكنسية لكي تدعو لها، لقد كان ذلك عام حزن بالنسبة لها عندما فقدت أمها سبب وجودها في الحياة.

ثم مرّت الأيام ليرسل لهم عمها رسالة يُبشرهم فيها باكتمال بناء منزلهم في بغداد، ويطلب منهم الانتقال للسكنى فيه، مما جعل أباها يستفسر من عمله عن آلية الانتقال إلى الموصل، وتم ذلك على وجه السرعة عندما أجابه مديره بالموافقة الفورية.

وقد كان يرتدي الحُلة العسكرية التي جعلت له هيبة، وكان برتبة عقيد آنذاك، وكان أسمر اللون، له شاربان كثيفان وأنف كبير، وهو طويل وضخم الجسم ومفتول العضلات.

وعندها عاد أبوها وهو في قمة السرور إلى المنزل ليشرعوا جميعًا في التهيئة الكاملة للسفر، والتي كان منها تجهيز سيارة كبيرة تحملهم مع أغراضهم إلى منزلهم الجديد في المدينة الأخرى.

وعند رحيلهم كانت لحظات الوداع حاضرة بكل قوتها وآلامها، حيث ودعوا بالدموع قبر جدتها، وودعوا خالتها وأصحابهم وجيرانهم والكثير من ذكرياتهم الجميلة. وفوضوا جارهم بالعناية بمنزلهم، ووكلوه بمسؤولية تأجيره للسكان، حيث أجره لأحد أقاربه.

كان الانتقال إلى بغداد يعني انتقال الأجساد والثقافة، فبغداد هي العاصمة، ولذلك هي أكبر بكثير من مدينتهم السابقة نينوى، وهي الأكثر سكانًا، وهي الأكثر حضارة من حيث وفرة المؤسسات والمدارس والمستشفيات، وغيرها من الجهات الحكومية الأخرى.

وبعد استقرارهم في منزلهم الجديد بدأت ماريا في استكمال دراستها الثانوية، وشرعت في تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية.. وكانت الأحوال في المدرسة مختلفة من حيث اللِّبس الموحد، والدوام الطويل والذي يتضمن فقرة وجبة الغداء ودروس الموسيقى.

وكانت الأوضاع المعيشية مختلفة فأغلب طالبات المدرسة كن من بنات أعلى طبقات المجتمع قبل ثورة رشيد عالي الكيلاني[١]

---

[١] هذه الثورة حصلت بانقلاب على الوصي عبد الإله، حيث كان النظام في تلك الحقبة نظامًا ملكيًّا، وهي التي قام بها الثوار الأحرار الضباط الأربعة مع رشيد عالي الكيلاني، ولولا مساندة الإنكليز للوصي آنذاك لانتهى الحكم الملكي، إلا أن الانقلاب فشل، ولكنه أضعف الحكم حيث كان الملك فيصل الثاني آنذاك صغيرًا جدًّا.

وكانت تلك الثورة في شهر شباط من عام ألف وتسعمائة وتسع وأربعين، ونتج عنها إسقاط الوصي عبد الإله من عرشه العرش، وتم تشكيل حكومة جديدة سميت باللهجة العامية (دكة رشيد عالي).

وأسهمت هذه الثورة في تأجيج الروح الوطنية عند الشعب، مما أسهم في قيام ثورة عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين والتي قادها تنظيم الضباط الوطنيين ضد المد البريطاني، ونجحت لأن ما كان قبلها من تعسف وقمع للحريات واضطهاد وفرض نظام الطوارئ والأحكام العرفية والذي فرضه نوري سعيد باشا، والذي كان منحازًا لبريطانيا في الوقت الذي كان يعاني الشعب من ويلات جراح الحرب العالمية الثانية! حيث كان العراق حينها أحوج إلى دمل جراحه، وإعمار البنية التحتية التي دمرتها الحرب، إضافة =

إلى تداعيات الاستعمار البريطاني وثورة العشرين.

ولأن نوري سعيد كان رئيسًا للوزراء في تلك الحقبة فقد كان يريد أن يفرض مشروعه السياسي بعد تصفية مشاكله السياسية مع خصومه.

وعلى الجانب الآخر كان الفريق حسين فوزي رئيس الأركان العامة يقود تيارات معارضة لسياسة رئيس الوزراء نوري سعيد، ولذلك فقد تحالف فوزي مع العديد من قادة الجيش، إضافة إلى بعض الأحزاب والشخصيات الوطنية بزعامة رشيد عالي الكيلاني باشا الذي كان رئيسًا للديوان الملكي

ومعه بعض التيارات الوطنية الطامحة لانفصال العراق عن الاحتلال البريطاني والتي ترفض سياسة نوري سعيد الخاضعة للاحتلال البريطاني.

ثم نشب الصراع المسلح بين التيارين ليتسبب في استقالة نوري سعيد وتولي رشيد باشا رئاسة الوزراء بدلا عنه، وذلك بعد تدخل بريطانيا لمناصرة نوري سعيد.

وعندما ترك العرش عبد الإله وهرب إلى الخارج مع نوري سعيد أدركت بريطانيا أن العراق خرج عن طوعها، فسعت لعودة نوري سعيد والوصي إلى الحكم، وشنت حربًا ضد رشيد باشا لإسقاط حكومته أدت إلى احتلال العراق من قِبلها، لتفشل ثورة مارس عام ألف وتسعمائة وواحد وأربعين.

وبناء عليه اعتقلت الحكومة البريطانية العقداء الأربعة وهم: محمود فهمي سعيد، صلاح الدين الصباغ، كامل شبيب، ومحمود سلمان. وهرب رشيد عالي الكيلاني لاجئًا إلى السعودية.

مرت ليالٌ سوداء وعدم استقرار خاصة في العاصمة بغداد، ونجحت بريطانيا في إعادته إلى الحكم، ولكنه كان تحت طوعها وأوامرها! وصحيح أن الاستقرار عاد للعراق ولكنه كان استقرارًا بلا سيادة!!

وكانت أم ماريا تعشق القراءة، وتهوى الكتابة، وظلّت على ذلك حتى جمعت مادة كاملة حوّلها زوجها إلى كتاب، وأهداه لها في عيد زواجهما العاشر، وكان عنوان الكتاب (أحلى ليالي العمر)، ولذلك كانت ماريا تُرافق أباها وأمها في كل يوم جمعة إلى شارع المتنبي[١]

[١] كان شارع المتنبي وسط العاصمة بغداد قرب ميدان وشارع الرشيد حيث تزدهر فيه تجارة الكتب بشتى أنواعها، وينشط البيع فيه كل يوم جمعه يرتاده المثقفون للتبضع وينهلون من العلم.

ويحتوي الشارع أيضًا على أقدم مطبعة، وعدد من المكتبات القديمة التي تحتوي على مخطوطات نادرة.

ويحتوي أيضا على مبانٍ قديمة ومنها مباني المحاكم المدنية التي كانت تسمى (القشلة) باللغة التركية.

وفيه (مدرسة الموفقية) التي بناها موفق الخادم وهي موضع (مديرية الطابو) في العهد الملكي التي يقابلها المركز الثقافي المطل على نهر دجلة الذي يحتوي على عدد كبير من القاعات لعمل الندوات الشعرية والأدبية والثقافية، وباحة المركز يتجمع فيها المثقفون لتبادل الآراء وأطراف الحديث، ويوجد معرض دائم للرسم على الخشب والتراث.

وفي نهاية شارع المتنبي يوجد سوق السراي الذي يشتهر ببيع الدفاتر والأوراق والكتب المدرسية، ورغم مسافته القصيرة جدًّا والتي لا تتجاوز الثلاث مائة متر إلا أن المكتبات كانت تتكدس فيه بكثرة.

وهو من أقدم الأسواق في بغداد حيث تزامن بناؤه مع بناء جامع الوزير حسن باشا بن الوزير محمد باشا في عام ألف وستمائة وستين.

وهناك بجواره أيضًا سوق السراجين الذي كان يرتاده المراجعون للدوائر الحكومية =

(شارع الاكمك خانة) في منطقة الرصافة من بغداد لشراء الكتب واحتساء القهوة في مقهى (الشاه بندر) التراثي القديم[١]

لقد ذكّر ماريا (سوق السراي) بسوق سراي الموصل في وسط المدينة القديمة حيث كانت أقدم سوق وأكبر أسواقها، وكانت عندما تزوره ترى تميّزه بأزقته الضيقة المُتعرجة، والتي كان كل زقاق فيها يختص بمهنة معينة أو حِرفة مثل حِرف: (الصفارين والحدادين والنجارين والسراجين والسمكرة والعطارين والصرافين والحبالين والخفافين والفحامين والقهوجية وتجار الأقمشة).

مثل مبنى مصرفية لواء بغداد الذي كان مقابل (القشلة) مقر الحكومة العراقية آنذاك، وقد بُني في عام ألف وتسعمائة وأربع وثلاثين في العهد الملكي، والذي كان يُسمى قديمًا بسوق (الجبقجية) ويعني أصحاب المهن.

وشارع المتنبي أطلق عليه هذا الاسم في عهد الملك فيصل عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين تيمنًا بشاعر الحكمة والشجاعة "أبو الطيب المتنبي".

وتوجد في (سوق السراي) مئات الصور القديمة لأبرز الشخصيات السياسية القديمة منذ عام وتوجد فيه عدد كبير من المكتبات القديمة، كمكتبة النهضة والمعارف، وعدد من مؤلفات كتاب فترة الأربعينيات الميلادية مثل الدكتور جواد علي ونوري جعفر.

[١] كان يوجد في مدخل سوق السراي المقسم لثلاثة أقسام مخابز في عهد الدولة العثمانية تسمى (الاكمك خانة) مقابل مقهى (الشاه بندر) الذي كانت تُباع فيه (كبة السراي) وهي من ألذّ الأكلات العراقية ويتم إعدادها من اللحم المفروم.

وعندما سكنت في بغداد كانت مع أهلها تزور (سوق الشورجة) وسوق الغزل[١] وكانت تسأل أباها عن هذا التراث حيث قال لها إن (ابن هولاكو) هو من بنى منارة جامع الخلفاء في القرن الثالث عشر الميلادي.

كانت ماريا تحب الطيور ولذلك اشترت لها أمها في عيد ميلادها عدة طيور أحبتها واعتنت بها كثيرًا، وسمت واحدًا منها كوكو الأخضر، والآخر توتو الأزرق، وكانت تعتني بأقفاصها جيدًا.

---

[١] سوق الغزل يتميّز بمنارة جامع الخلفاء، وهي أقدم منارة باقية في بغداد، ويتميّز السوق أيضًا باحتوائه على محال صغيرة لبيع الحبوب الجافة والبقوليات والأعشاب، ومحال أخرى لبيع الطيور الأليفة والبرية كالصقور والطواويس، بالإضافة إلى الكلاب النادرة وأسماك الزينة.

ويقف على أرض السوق جامع الخليفة التي سقطت منارته وجددها الوالي سليمان باشا الأول في عام ألف وثمانمائة وعامين.. إضافة إلى جوامع النخلة وجامع النوبجي.

ولقد بني (سوق الشورجة) في العصر العباسي حيث يمتد موقعه إلى جامع مرجان في شارع الرشيد، ويسمى اليوم (سوق الريحانين).

وأصل تسميته جاءت من كلمة (شوركاه) وتعني بالفارسية البئر المالحة إذ كانت (محلة الشورجة) في قديم الزمان تحتوي على بئر للماء.

واختلف أبوها وأمها حول أصل تسمية (سوق الشورجة)[١] فقال أبوها بأن التسمية جاءت كما أسلفنا في الهامش السابق.

---

[١] يوجد في سوق (الشورجة) حمام (الشورجة) وسوق التمارة والعطارين.. (وخان مخزون) (والخان) هو الفندق الذي يقضي فيه المسافرون من خارج بغداد وقت راحتهم ريثما يذهبون للتبضع من السوق.

وكذلك أغلب البغداديين كانوا يتبضعون من هذه السوق في رمضان والأعياد والمناسبات، ويشترون منها الشموع والتوابل ومستلزمات الأعراس والأفراح.

وكان بجواره (سوق الصابون وسوق الخانات) حيث كان فيها ثلاثة عشر (خان) وهو الفندق ومنها: (خان لالة الصغير، وخان جني مراد) وسبب التسمية هذه أنه في يوم من الأيام احترق الخان وظهر خلف البناء الذي احترق بناء آخر، ليعتقد الناس حينها أن هناك مملكة للجن قد بنت (الخان).. إضافة إلى (خان الأمين وخان الاغا).

وفي المنطقة نفسها توجد عدة مقاهي مثل مقهى المعلكة ومقهى قدوري الذي يرتاده الفنانون وقراء المقام كعبد الرزاق القبنجي ومحمد القبنجي.

ولأن منطقة (سوق الشورجة) ثرية بالجوامع والأسواق (والخانات) فكان من يزورها كأنه زار بغداد كلها، ولقد تعرضت السوق لحريق في عام ألف وتسعمائة واثنا عشر ميلادية واستمر لمدة سبعة أيام حتى تم إخماده بخسائر مادية فقط.

وكان هناك أيضا سوق النحاس الذي تأسس في العصر العباسي المقارب (لباب الأغا) على شارع الرشيد قرب (سوق الشورجة) ومقابل (خان مرجان) حيث كانت أغلب الأواني المنزلية قديما من النحاس، وإطارات الصور والفوانيس كلها كانت أيضًا من النحاس.

وكانت محلة (سوق الشورجة) والأسواق المجاورة له تُعرف قديمًا (بالثلاثاء) وهي قريبة من دار الخلافة العباسية، وكان يعرف بسوق مسعود، وهو درب نافذ إلى المدرسة النظامية التي تُعد من المعالم الأثرية القديمة جدًّا.

وتحتوي المحلة على مسجد الصفارين، وهو مسجد صغير بُني في زمن الدولة العثمانية.

ولكن أمها قالت إن التسمية جاءت من (الشبرج) الذي يعني زيت السمسم حيث كانت قديمًا في السوق موجودة معاصر للسمسم، وحُرفّت مع مرور الزمن من (شبرجة) إلى (شورجة).

تعلّمت ماريا فنّ الطرق على النحاس من المعلمة التي علمتها الفن، ولقد صنعت لوحة نحاسية من جمالها علّقتها أمها في المنزل وأصبحت تتباهى بها أمام الضيوف.

ولأن أمها كانت تقرأ كثيرًا فقد أصبحت مُلمة بالكثير من تاريخ العراق، ولذلك أصبحت تلجأ لها في كل شيء، وتسألها عن كل شيء يتعلق بتاريخ بغداد التي تعشقها كثيرًا.

كانت ماريا تحب مدرستها[1]، وتعشق العباءة البغدادية، والمنازل في بغداد خصوصًا تلك المنازل التي تتميّز بطراز خاص من

---

[1] كانت بغداد قديما متميّزة، وكان الرجال فيها يلبسون قبعة في الرأس مميّزة تسمى (السدارة) خاصة الموظفين منهم وهم (الأفندية)، وأما الرجال الكبار الكسبة والتجار فكانوا يلبسون (الكوفيه) التي تُشد على الرأس وتسمى (الجراوية) (والدشداشة) التي هي الثوب والزبون وهو رداء طويل يُغطي (الدشداشة) ويلبس فوقه رداء آخر (الجاكيت أو السترة).

وكانت الأكلات البغدادية مثل: (الباجا، وتمن جزر، وتمن باقلاء والسمك المسكوف) وغيرها من الأكلات اللذيذة (كالبرياني).

لقد تأسست مدرستها في الباب الشرقي قرب (بارك السعدون) في عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين ميلادية، وهي مدرسة أساسية تبدأ من الروضة وتُشرف عليها وزارة المعارف، وكانت مختلطة بين الجنسين البنات والذكور، وكان لها ملحق يحتوي على أقسام داخلية أضيفت لها في عام ألف وتسعمائة وخمس وأربعين ميلادية.

وكانت فعاليتها تبدأ بتحية الصباح وأداء النشيد يقوم به عدد وفير من الطلاب وهناك نشاطات كاستعراض الأزياء الفلكلورية تشمل أزياء جميع فئات المجتمع لترسيخ روح المواطنة، وكان عدد الطلاب آنذاك مائتين طالب وطالبة بجميع المراحل.

وكانت من الشعارات التي تُكتب على حوائط المدرسة: (من أدب ولدًا صغيرًا سار به كبيرًا) (إذا سلمت الأبدان سلمت العقول) (والعلم نور والجهل ظلام).

وكان لها زي موحد للمعلمات هو أسود والقميص أبيض وللطلاب والطالبات، وكانت الصفوف مرتبة بالطاولات الكبيرة والكراسي، وعلى كل طاولة تلميذان.

وكانت ساحة المدرسة كبيرة جدًّا، وكانت تحتوي على الأشجار الكبيرة من النخيل.

وكان من ضمن فعالياتها تنظيم وجبة غداء يومية للطلاب والطالبات تحت إشراف مديرة المدرسة.. إضافة إلى الحافلات الخمسة التي تنقل الطلاب والطالبات إلى بيوتهم.. وغيرها من النشاطات الا صفية التي تشجع فيها إدارة المدرسة الطلاب والطالبات المُميزين.

(الشناشيل والشرفيات).

وكانت ماريا تشعر بروعة في درس الموسيقى المرتبطة بالعصر العباسي حيث كانت تبتهج وهي تُمرر أناملها على الأوتار الموسيقية.

وكانت من ضمن فعاليات المدرسة الفقرة الرياضية والموسيقية، وفقرة رقص الباليه التي كانت تُبهر ماريا، وتَراهن كأنهن فراشات طائرة في أثناء رقصهن.

وكانت ماريا في غاية السعادة عندما كانت في المرحلة الثانوية وكانت تتبرع لمنكوبي الفيضان الناتج من نهر دجلة في عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين.

تتذكر ماريا ابني عمها هاني ونائل، فهاني كان يكبُرها بخمس سنوات، وكان شابًا وسيمًا رشيقًا مفتول العضلات، قد أكمل الثانوية قبلها وحصل على درجة عالية، وكان من الأوائل على العراق مما أهّله للحصول على مِنحة دراسية طبية إلى لندن.

ولأنه كان قليل الكلام فقد كان يتداول الرسائل المكتوبة فيرسلها من لندن إلى أهله في العراق، وظلّ على ذلك حتى أتم دراسة البكالوريوس وحصل على الامتياز من جامعة كامبردج.[١]

وأرسل لأبيه وعمه صور تخرّجه، والتي كان يبدو فيها في غاية الأناقة بلباس التخرج المعروف باللون الأسود والمُقلم بالأحمر والقُبعة المعروفة التي كان يرميها عالِيًا من شدة سعادته.

---

[١] تعد هي الجامعة الأولى في بريطانيا وفي العالم، حيث بُنيت عام ألف ومائتين ميلادية، ولقد تخرّج فيها نيوتن وغيره من علماء العالم المعروفين، وكانت تحتوي على قاعات دراسية عمرها ستمائة سنة، وفيها أيضًا مُصلى للمسلمين.

وكانت جامعة كامبردج تقع على ضفة نهر (كام) المار عبره، ونسبةً إلى مدينة كامبردج سُميت الجامعة بهذا الاسم، وهي تضم عددًا كبيرًا من الطلاب من مختلف بلاد العالم، وفيها كثير من المعالم كمتحف (فيتزوليام) الذي يحتوي على الكثير من العملات النقدية القديمة والآثار واللوحات الفنية.

وفيها حديقة النباتات التي تحتوي على أكثر من ثمانية آلاف نوع يدرسها طلاب الجامعة، وفي المدينة أيضًا منطقة (ذا باكس) وهي منطقة ذات مناظر خلابة تقع على جانبي (نهر الكام).

وكان كلما زارهم في أجازته السنوية يحدثهم عن الحياة في بريطانيا وفي كامبردج تحديدًا.

كان هاني يكتب لأمه مُعاناتِه مع الغربة التي كان فيها يطبخ ويغسل ويقوم بكل أعمال المنزل فيها، وقد أصيب ذات مرة بحُمى كاد أن يموت بسببها لولا صديقه المسلم صالح الذي كان يسكن معه في سكن الجامعة، والذي ساعده وذهب به للمستشفى، مما جعله يتمسك به، ويرى فيه الصديق الوفيّ النبيل.

حيث درسا معًا اللغة وجميع مرحلة البكالوريوس التي كانت مُدتها ثلاث سنوات، والتي تعرّف فيها هاني على بعض الأصدقاء البريطانيين، وكان منبهرًا بالقوانين البريطانية، والتي كان يتمنى أن يتم تطبيقها في بلاده العراق.

ولقد تعرّف هاني أيضًا على عائلة صديقته (هلن) التي كانت مسيحية من طائفة (أرثوذكس)، حيث أصبح يأتي لهم في جميع المناسبات بالزيّ العربي حتى في مناسبة (الهالوين) التي تعجب الحضور فيها من ملابسه! وأصبحوا يلتقطون الصور معه.

تطورت علاقته بصديقته (هلن) وأصبحا يتبادلان الهدايا كالدببة الحمراء والقلوب العاشقة حتى أصبح يحدث أمه عنها، وكتب لها ذات مرة بأنها هي التي ساعدته في الدراسة، وبأنه يرى في عيونها بريقًا يبعث فيه الحياة والأمل.

أسهم هذا الحب الشديد في ذهاب أمه إلى لندن من أجل إتمام مراسم الزواج، والتي تمت بشكل سريـع، وقرر البقاء معها في لندن وممارسة عمله في جراحة القلب هناك.

كان هاني يتجول مع أمه في مدينة كامبردج، ويذهب بها إلى كل الأماكن التي قد مر بها سابقًا مع حبيبته (هلن) وكان بقرب أمه في غاية السعادة.

وكان كلما نظر إلى زوجته (هلن) يتذكر أول لقاء شاهدها فيه عندما سقطت منها كتبها وأوراقها في الجامعة فانحنى لكي يساعدها في لملمة أغراضها.

وكان يتذكر أيضًا الحساء الذي كان يعمله لها حينما تمرض، إضافة إلى تغطيته لها بلباسه خوفًا عليها من المطر في أثناء مروره معها بجوار النهر، وكانت هي أيضًا تضع قبعتها على رأسه..

لقد ابتسم كثيرًا وهو يتذكر تلك اللحظات، ويحمد الله أنها تكللت بالزواج الجميل.

وكانت (هلن) شقراء جميلة ذات ملامح أسكتلندية وحيدة أهلها، وكانت أمها معلمة، وكان أبوها موظفًا في البنك.

عادت أم هاني إلى بغداد وهي تحمل معها بعض الهدايا البسيطة، فأعطت معطفًا لماريا، وحقيبة يدوية لأمها، وبعض الملابس لنائل، وبدلة سوداء فخمة لزوجها.. وجلس الجميع يتأمل صور زواج هاني.

درس نائل في ثانوية الأعظمية[١] وفي كلية بغداد درس هندسة

---

[١] مدرسة الأعظمية من أقدم مدارس بغداد التي تأسست عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين في الأعظمية على نهر دجلة على الضفة الشرقية، وكانت تضم أرقى مناهج التعليم التي أسسها اليسوعيون الأمريكان، ولذلك كان معظم طلابها من المسيحين واليهود، ومن العائلة الملكية والحاشية المخملية، ثم درس فيها الطلبة المسلمون الذين أصبحوا يشكلون نصفها.

وكان موقعها يضم تسعة مبانٍ مكونة من مدرسة داخلية، ومختبرات، ومكتبة، وساحة كبيرة، وكانت تحيط الأشجار الكثيفة بسور المدرسة الذي تقف فيه بوابة رئيسية شاهقة .. وقبل أن تُبنى كانت عوائل بغداد المخملية تُرسل أبنائها إلى كُلية فكتوريا في الأسكندرية.

وكانت تمتاز هذه المدرسة بزيّ موحد للطلاب عبارة عن قميص أبيض وجاكيت أزرق وسروال رصاصي.. وأما الكادر التعليمي فكان يرتدي زيّ الرهبان الأبيض.. وكانت دروس العلوم والرياضيات تُقدم باللغة الإنجليزية.

البترول، ولم يكن يعلم حينها أن بلاده العراق ستُصبح من ضمن أهم الدول المُصدرة للبترول!

لقد أتمت ماريا الثانوية ودخلت في الجامعة كلية الهندسة لأنها كانت تعشق المباني ذات الطِّراز الإسلامي، فهي تعشق الآثار والحضارة وذلك عام ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين.

تعرّفت في أثناء دراستها على شاب اسمه عادل الذي كان يدرس في كلية الحقوق فاتخذته صديقًا للدراسة.. وكسبت في الجامعة عدة صديقات وهن: سلمى من الناصرية، ومارال اليهودية، وكاثرين المسيحية، ونبيهة المسلمة السُّنية.. واحترمت لهن جميع عاداتهن وطقوسهن الدينية، وكانت أيضًا كل منهن تحترم عادات وديانة وتقاليد الأخرى.

كانت ماريا شغوفة جدًّا بالبحث والسؤال، وتريد أن تعرف كل شيء بفضولها العلمي.

كانت سلمى عكسها بخجلها وهدوئها وقلة كلامها.

بينما كانت مارال نشيطة جدًّا وتتميّز بنظراتها الثاقبة التي تجعلها تركز على كل شيء، وكأنها تريد أن تحتوي العالم في مخها الصغير!

وأما كاثرين فقد كانت ابنة الأثرياء التي تعودت أن تعتمد في كل شيء على الآخرين بأنانيتها المفرطة! وحُبها للتملك! وغيرتها الزائدة! حيث تريد أن يكون الجميع معجبًا بها لوحدها فقط!

وعكسهن كانت ماريا ذات الحكمة والعقل الراجح والقلب الأبيض، فهي تُقدم خدمات دائمًا لصديقاتها لا تريد منهم جزاء ولا شكورًا.

وبالصدفة التقت ماريا بعيسى أخو صديقتها كاثرين الذي جاء للكلية يسأل عن أخته، وعندما وقعت عيونها في عيونه لمعت عيناه حيث كان شابًا وسيمًا ومن أسرة ثرية، وكان والداه من الأطباء المشهورين جدًّا الذين أنجباه هو وأخته فقط.

لقد أعجبها من النظرة الأولى، ولكن تقاليد المجتمع كانت ضيّقة لا تسمح بأي شيء يخترق قوانينه، وبعد شهر من تلك الصدفة الجميلة التقته مجددًا عندما زارت الكنيسة مع عائلتها، فأخذتها كاثرين لتعرفها على عائلتها مما جعل عيسى يصافحها ويتبادلان ابتسامات خجولة.

شرعت العائلتان في التحدث مع بعضهما البعض وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن طويل! ثم عرض عليهم والد ماريا زيارتهم في المنزل فوافقوا على الفور.

مضت الأيام والزيارات بينهم تتوالى وتتبادل لتُصبح العلاقة بينهم قوية، وكانوا في زياراتهم لأهل كاثرين يعزف لهم عيسى على البيانو حيث كان عاشقًا للموسيقى، ويُصفق له الجميع.

انبهرت ماريا بعيسى كثيرًا وطلبت منه تعليمها الموسيقى وتم ذلك بالفعل، حيث رتب لها أيامًا في الاسبوع تأتي ويدربها على البيانو، مما جعلها تلتقي به بشكل دائم، وأصبحت ترى فيه أشياء

جميلة يومًا تلو آخر، لقد اهتزّت مشاعرها تجاهه وأصبح بينهما انسجام وتفاهم عالٍ لدرجة أنه أهداها وردة حمراء في عيد ميلادها ومقطوعة موسيقية خاصة بها.

كما أهدت لها أخته كاثرين مجموعة من الكتب النادرة، ووجدت في أحد الكتب زهرة حمراء جميلة ورائحة عطرة ومميزة، وهي نفس الرائحة التي كانت تشمها في عيسى، وحينها أدركت أن هذه الزهرة منه، وأنه يبادلها نفس المشاعر.

استمرت نظرات الإعجاب بينهما ولكن لم يُصرح أحدهما للآخر بحبه.

كانت قصتهما تشبه قصة الصياد والفتاة الجميلة، ففي ذات يوم خرج الصياد في الصباح إلى الغابة كعادته، وعندما بدأ بتوجيه بندقيته للاصطياد وقعت عيناه على فتاة جميلة أُعجب بها من النظرة الأولى، وشعر بمشاعر حب تجاهها، ولكن منعه خجله من الكلام معها في ذلك الوقت!

وفي اليوم التالي رأى الصياد الفتاة الجميلة في الغابة من جديد وأصبح يراها كل يوم في المكان نفسه حتى تعوّدَ عليها، وتعودت عليه هي كذلك.

وفي يوم قرر أن يُخبرها بعشقه لها، وأنه يريد أن يتزوجها، فذهب مُتحمسًا في ذلك اليوم إلى الغابة ولكنه لأول مرة لم يجدها!

ظلّ ينتظرها، وتوالت الأيام وهو ينتظر دون جدوى فلم تأتِ! حتى بدأ يبحث عنها في المدينة، وكل من يلتقي به ولكن أيضًا دون جدوى.

فما كان منه إلا أن تَخيّلها ورسمها، ونشر صورتها في جميع أنحاء المدينة، وكتب عليها عنوانه.

وبعد أيام جاءته رسالة منها لتغمره السعادة الكبيرة، وأجابها بأن الحب هو سبب بحثه عنها، فردت عليه برسالة أخرى أخبرته فيها بأنها تعشقه، وبَللتها بدموعها، وقطرات من عطرها.

وبعد تبادلهما لعدة رسائل عديدة أخبرها أنه يُريد مقابلتها في نفس المكان في الغابة، وبعد أن وافقت على الموعد حضر مبكرًا، وجهّز المكان، وهيأ خاتم الخطوبة، وعندما قدّم لها الخاتم بكت بشدة وأخبرته أن أباها قد قام بخطبتها إلى رجل غني لا تعرفه ولا تحبه.

فذهب الصياد فورًا إلى أبيها وطلب منه يدها، ولكنه رفض!! وأخبره أنها مخطوبة من شخص آخر، وعندما رأى الصياد مُصرًّا على الزواج من الفتاة، قال له إن كنت حقًّا تريد الزواج من الفتاة فعليك أن تجمع ضِعف أموال الرجل الأول في ظرف أسبوع واحد!!

خرج الصياد من مجلس أبيها وهو لا يعرف ماذا يعمل! ولكنه باع كل ما يملك، وعمل طوال الأسبوع في الليل والنهار، وبعد نهاية الموعد المحدد لم يكن قد استطاع جمع المال!

ذهب إلى منزل أبيها فوجد أن حفل الخطوبة قد بدأ!!

انهمرت دموعه، واقترب شيئًا فشيئًا من مكان الحفل ليتفاجأ أن الخاطب غير موجود على كُرسي الخطوبة!! وحينها خرج أبوها إليه مبتسمًا وقال له أنت الشخص المناسب للزواج من بنتي!! وتزوجا وعاشا معًا لحظات غاية في السعادة.

بعد أن أتم عيسى دراسته الجامعية وكذلك ماريا أرسل أخته كاثرين لكي تلمح لماريا بموضوع الخطوبة التي تبسمت وصمتت! ثم وافقت عليه ليشع الفرح في قلب كاثرين وأخيها اللذين أصبحت زياراتهما كثيرة لمنزل أهلها.

ثم جاءت أم كاثرين وطلبت رسميًّا يد ماريا لابنها عيسى الدكتور الشاب الوسيم الذي ينحدر من أسرة ثرية، ويتمتع بأخلاق عالية.

وفي أثناء الخطوبة تتذكر ماريا ارتباكها عند تقديمها القهوة للضيوف وجلوسها بجوار أم عيسى عند شروعها في موضوع الخطوبة.

وكان رد أمها عليهم بأنها ستخبر زوجها، وأن ردّهم سيكون بعد أسبوع، وتمنّت الخير لكلا العائلتين.

وبالفعل عند رجوعه من العمل بشّرته بالخطوبة، فجلس مع ابنته ماريا التي كانت في قمة خجلها، وكان قبولها صمتها.. وأكد لها بأنه يجب أن يسأل عنه، وعن عائلته من أجل الاطمئنان على مستقبلها.

وعندما أصبحت بمفردها كانت ماريا قلقة تضرب أخماسًا في أسداس رغم ثقتها العالية في عيسى وأسرته الكريمة، ولكن حبها الشديد له واهتمامها به دفعاها للتوتر الذي كان باديًا عليها مما جعل أمها تحضنها عندما رأتها، وطمأنتها بأن الخير بيد الله.

كان أبوها يتمتع بصداقة مع بعض المسؤولين في وزارة الداخلية مما سهّل عليه البحث عن عيسى الذي عرف عنه كل شيء في أربعة أيام فقط، ليطمئن بأن ابنته ستكون في أيدٍ أمينة.

وقال لزوجته وماريا بأنه موافق على العريس بشرط وهو أن يقوم بحل لغز سيطرحه عليه!! وحينها عاد التوتر لماريا وانقطعت فرحتها! وكان اللغز هو:

(انشدك من عمر شبابه أسبوعين، وبعد أسبوعين ينثني شايب وكلا يحبه غير طلابه الدين ومدوره الا فوق النجايب)

وعندما جاءه عيسى قاله له، ومنحه ساعة واحدة للحل!! مما جعله ينغمس في بحر من التفكير، وطفق يدخل للمنزل ويخرج منه في ليلة مقمرة جميلة، حتى رأى القمر باديًا في السماء "فدعا ربه أني مغلوب فانتصر" فدار في خلده حينها مباشرة (أليس هو القمر يعيش شبابه أسبوعين ثم ينحني وينتهي، ثم يكتمل مجددًا) مما جعله يخبر أباها باللغز، ليُصفق له ويقول له: خذها أمانة في عنقك.

وكان عيسى يزورهم أثناء فترة الخطوبة في قارب يسمى (الكفة)[١] في كل يوم خميس يستمتع بوقته معها، ويناقش معها مستقبلهما، وترتيب حفل الحناء والعرس.

---

[١] كان ذلك في بداية الخمسينيات من القرن الماضي قبل الإطاحة بالملك فيصل، وفي تلك الفترة كان النقل يتم بوسائل مثل: (الكفة أو القفة) التي تُصنع من الخيزران على شكل دائرة ثم تُطلى بالقير، وهي الواسطة الوحيدة قبل (البلم) في نهر دجلة في فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الفائت كان العبور في نهر دجلة في بغداد من جانب الكرخ إلى جانب الرصافة يتم في هذه (القُفة).

وأما في الفرات فكانت هناك آلة لتدوير المياه تستعمل في السقي تُسمى (النواعير أو الناعور) ويقوم الرجال الذين يمتلكون أجسامًا قوية بتحريك (المجذاف) الذي هو عبارة عن وتد من خشبة طويلة وفي نهايته خشبة تشبه الكف، والرجال الذي يمتهنون تلك المهنة كانوا يعرفون (بالبلامة) الذين كانوا ينقلون الأشخاص والأغراض وحتى الحيوانات بالكفة، ويغنون في أثناء الرحلة، وكان من أشهرهم حينها حجي مهدي.

وكان الدينار هو العملة الورقية، وأما العملات النقدية المعدنية فكانت الفلس والخمسة فلوس والعشرة والمائة.. وكان الدينار العراقي في ذلك الزمان يعادل ثمانية جرامات من الذهب أي بما يعادل ثلاث عشرة روبية هندية منذ الاحتلال البريطاني للعراق خلال الحرب العالمية الأولى.

بعد ذلك تحول إلى دينار عراقي وتم ربطه بالجنيه الإسترليني عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين، ففي نفس العام كان يساوي ٤،٨٦دولار أمريكي، ثم حصل التضخم ونزلت قيمة الدينار.

ركبت عائلة عيسى في (الكفة) وذهبوا لكي يقتنوا كل ما يخص العروسة من عطورات وذهب وهدايا التي كانت تُمنح لجميع أفراد عائلة العروسة، ويتم وضعها في سِلال الخوص. [١]

[١] أو بما يسمى (بالطبك) وهو يشبه الإناء الكبير صنع من القصب والبردي باليد، ويكون ملونًا حيث توضع أغراض العروس فيه.

أو (بالبقجة) : وهي قطعة من القماش مربعة الشكل مزركشة بالورد توضع فيها أغراض العروس، وتربط وتحمل على رؤوس النساء المقربات للعروس والعريس، وتنقل إلى بيت العروس.

وفي الهدايا بين العروسين يُترك في الغالب الأمر لهما فكل واحد منهما يشتري الهدايا للآخر، والتي يكون أهمها خاتم (المحبس) الذي يُنقش عليه تاريخ المناسبة، أو حرفين من اسم كل منهما، او اسميهما معا للذكرى، وكل منهما يلبس الآخر هذا الخاتم في اليد اليمنى، والذي يتغيّر مكانه إلى اليد اليسرى عند عقد القران.

في الوقت نفسه تكون أم العروس قد جهزت ابنتها من كل شيء تحتاجه من مفروشات وأغطية وكلها قد صنعتها بنفسها لابنتها منذ نعومة أظافرها بأعمال يدوية تشمل السنارة أو الإبرة وهو شغل مُتعب ونادر ويأخذ من الأم الكثير من الوقت.

وفي حفلة الزواج لبست ماريا أكثر من فستان للسهرة وتزيّنت بالهدايا، ورقص الجميع على أنغام معزوفات (الجالغي البغدادي)[١] والمقام الأصيل، وأغاني المطربة سليمة مراد[٢]، لأن حفلات الزواج كانت غالبًا خاصة بالنساء، والرجال يحضرون فقط في حفل إعلان الخطوبة.. وبعد الحفلة أعطتهن أم ماريا أجرتهن من الدنانير العراقية والتي كانت تمثل حينها مبلغًا طيبًا.

وقدّمت عدة هدايا لعريسها منها العطور والساعة، وقدّم لها عيسى هو أيضًا هدايا مثل (الدلات والقماش والعطور

---

[١] فرقة (الجالغي) البغدادي كانت تتكون من يوسف زعرور الصغير الذي كان يعزف على آلة القانون، ويوسف بتو يعزف على آلة (السنطور)، وصالح شميل على آلة (الجوزة) ويهودا موشي على آلة (الطبلة).. وهم من رافقوا محمد الكبنجي إلى القاهرة عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين.

وكلمة (الجالغي) هي كلمة تركية تعني الجماعة، وأصلها جاء من جملة (جالغي طقمسي) وتعني جماعة الملاهي.

وقد انتشر هذا الفن الأصيل بشكل واسع في بغداد، وفيه تلبس الفرقة زيًّا رسميًّا من الموروث العراقي الأصيل، ويعتمرون (السدارة)، ويغنون الغناء الجميل.

ويقال إنه في عشرينيات القرن كانت (الجالغيات) محتكرة ليهود العراق، ثم تغيّر الحال بعد ذلك خاصة في بغداد وكركوك والموصل. فالجميع يعلم أن يهود العراق هجروا من العراق عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين بعد احتلال فلسطين من قبل اليهود ولم يبقَ منهم إلا القليل.

[٢] المطربة سليمة مراد هي يهودية الديانة، وكانت تمتلك موهبة لا تنسى.

والمجوهرات) فهو ثري جدًّا ولذلك فقد جلب كل شيء نفيس وجميل لأعزّ إنسانة على قلبه.

وحرصت ماريا على تصميم كل فساتين زواجها بنفسها، حيث كانت تنقش مع أمها أجمل النقوش من تاريخ العراق العريق التي كانت عالِقة في ذاكرتها منذ الطفولة، حيث نقشت (بوابة عشتار وقصر الملك في بابل والثور المجنح وحضارة النمرود) على أحد فساتين زواجها.

وعلى الآخر نقشت (الملوية وقصر العاشق وقبة الإمامين الهادي والعسكري) وكتبت عليه (بالخط المسماري) اسم خطيبها واسمها بأقدم خط في التاريخ، كما أن التصميم كان مستوحى من لباس العصر العباسي.

وعلى أحد الفساتين رسمت أقدم المساجد وأقدم (الخانات).. لقد كانت فساتين زواجها مميزة جدًّا ورائعة، لأنها قضت وقتًا طويلًا في العمل عليها.

ولم تكتفِ بذلك؛ فقد رسمت أقدم الكنائس على الأغطية والمفروشات، كما رسمت الجنائن المعلقة في بابل، وكذلك القيثارة، وآلة العود.

لقد استوحت تصاميم ملابسها من تاريخ العراق ومن كل شبر في أرض العراق.. كما أن خواتم الخطوبة كان التاريخ المكتوب عليها بالهجري والميلادي وأسماؤهم بالخط المسماري والكوفي.

وتفاجأت ماريا بأن صديقتها اليهودية مارال تخبرها أن أهلها سيبيعون منزلهم! وسيغادرون نحو الاستقرار في فلسطين!!

لقد أبكاها ذلك الخبر المؤلم جدًّا، وعندما أخبرت أباها بذلك اشتراه منهم على الرغم من أنه كان قديمًا وصغيرًا إلا أن موقعه كان رائعًا واستراتيجيًّا.

وتتذكر ماريا خوفها الشديد من الفأر عندما زارته بعد امتلاكها مع أهلها ثم طمأنها أبوها بأنهم سيهدمونه لاحقًا، ويبنون مكانه منزلًا أو يستثمرونه.

ولم يمر الأمر عليها مرور الكرام، إذ جعلت تتساءل عن أسباب وجود الفأر بذلك الحجم الكبير في ذلك المنزل القديم، ورغم أن الاجابات تتوالى عليها بأسباب مثل الطعام والسكنى والاختباء إلا أنها لم ترتَح لأي إجابة منها!

في ليلة زفافها لزوجها عيسى أهدتها أمها نفس الخاتم الذي كانت قد أهدته هي لها في طفولتها، وهو من أختام العهد البابلي من أجدادها البابليين.

وكانت هدية أبيها مفاجأة كبرى عندما أهداها المنزل الجديد الذي اشتروه من العائلة اليهودية.

لتكون فرحتها عدة أفراح، فرحة بزواجها، وفرحة بالخاتم العظيم، وفرحة بالمنزل الذي ستستفيد من بيعه أو استثماره.

في ليلتهما الزوجية الأولى تبادلا أجمل الأحاديث، وقبلا أحلى الزهور التي كانت روائحها تعم المكان في أجواء حميمية رومانسية هانئة.

لقد حدّثت زوجها عيسى لاحقًا عن كل شيء خصوصًا عن الخاتم المعجزة حيث حكت له قصته كاملة، وأكدت له أنه سيلازمهما الحظ والسعادة ما بقي الخاتم عندهما!

ثم اتفقا على تحديد موعد قريب لزيارة المنزل الذي أهداها إياه أبوها بمناسبة زواجها من عيسى.

كانت جميع تلك الأحداث في نفس العام الذي ظهر فيه جهاز جديد يتحدث فيه البشر بالصوت والصورة التي كانت بالأسود والأبيض يسمى (التلفاز) الذي أدهش الناس آنذاك، وطفقوا يتحدثون عنه في كل مكان.

فبسببه حصلت بعض القصص الغريبة! حيث كانت النساء البسيطات يرتدين العباءة تحشمًا من ذلك الرجل الذي يظهر على شاشة التلفاز لأنهن يعتقدن أنه حقيقي!

لقد كانت البساطة والطيبة تسيطر على تفكير معظم العراقيين آنذاك، في حين أن العالم الآخر كان متطورًا بمقاييس التطور في تلك الحقبة الزمنية.

ورغم أن ماريا كانت مستمعة جيدة للمذياع والراديو -وكانت تستمتع إلى إذاعة صوت العرب وغيرها من الإذاعات المحلية كما هو شأن الناس الذين كانوا يسمعونه في المنازل والمقاهي- إلا أنها

طلبت من زوجها جهاز تلفاز يُشبع فضولها ويجعل لها ميزة على صديقاتها.

كان لإذاعة صوت العرب أثر كبير في تغيير نظام الحكم في العراق من النظام الملكي إلى الجمهوري، فالفترة حينها شهدت سقوط بعض الملكيات وتحوّلها إلى جمهوريات، ولكن والدها كان دائما يسلك طريق الحياد، ويتمنى الوقوف مع كل من يخدم وحدة العراق.

لقد رحلت جميع الوجوه التي كانت مقربة من الأسرة الحاكمة في العراق، وجاءت وجوه جديدة تحمل شعارات سياسية حديثة تُندد بالاستعمار وترفض الإمبريالية.

وكان كل عراقي يتمنى أن ترجع أيام بغداد العريقة، فهي مهد الحضارات، وهي عاصمة الدولة العباسية.

كانت ماريا تتأمل المسلمين وهم يذهبون في كل فرض إلى المسجد، فيلبس رجالهم الدشداشة والكوفية العربية، وترتدي نساؤهم الحجاب.

قرأت ماريا عن الدين الإسلامي فعرفت أن النبي محمد ﷺ قد حث في يوم الجمعة على الاغتسال والتطيب، ووعد بالأجر العظيم

لمن يأتي مبكرًا لصلاة الجمعة والتي تُعد عيد المسلمين الأسبوعي[١] فكانت تستمع لخطب الجمعة المليئة بالمواعظ والدروس التي كانت تثبتهم وتزيدهم إيمانًا، وتبصرهم بشؤون دينهم ودنياهم، ولذلك عرفت لماذا جعلوا الجمعة أجازة لكي يتفرغ المسلمون فيها للعبادة.

---

١ في يوم الجمعة أهبط الله آدم إلى الأرض، وفيه توفي آدم عليه السلام، وفيه ساعة استجابة يدعو المسلمون فيها ربهم، وفيه تقوم الساعة وينتهي العالم.

وجاء اسم الجمعة من الجماعة والتوحد حين يجمع الله الخلق يوم الحساب والجزاء على أعمالهم.

ومن عادات أهل العراق أن تجتمع العائلة في يوم الجمعة ويوضع الغداء والذي يكون غالبًا وجبة (الدولمة) التي تشبه إلى حد كبير ملفوف ورق العنب في البلدان الأخرى، وتقوم بعملها الأم أو الجدة، ويتبادل أطراف الحديث جميع أفراد الأسرة على الغداء، ثم يشربون الشاي بالهيل (الحيهان).

لقد تعلمت ماريا من أمها كل شيء، ولذلك كانت مُؤهلة لفتح بيتها الخاص بعد زواجها من عيسى، وكانت العادات حينها أن تقوم الأم بتعليم ابنتها عندما تبلغ كل شيء خصوصًا الطبخ لكيلا يُوبخها زوجها! أو تسمع كلامًا غير طيب من أهله!

كما أنها كانت تتعلم مبادئ الخياطة والتطريز والحياكة من المدرسة ومن الأم أو الجدة، لأن الملابس غالبًا كانت تُخاط في المنزل، فلم تكن تتوفر ملابس جاهزة إلا ما ندر.

انتهت الجلسة العائلية فخرج عيسى مع ماريا واستأجرا (الربل)[١] للذهاب إلى المنزل الذي أهداه لها أبوها، وكانت ماريا تحب عربة (الربل) لأنها مكشوفة وتجعل نسائم الهواء تتلاعب بخُصلات شعرها وهي تضاحك زوجها عيسى.

---

١ (الربل) أو (الحنطور) هو بالعربي الفصيح عبارة عن عربة عليها مظلة تجرها الخيول.

وصلا إلى باب المنزل وعندما فتحا الباب وجدا على المدخل (المزوزا)[١] والتي كان يعضها الناس كمعتقد وخرافة يرون أنها تمنع الشر عن المنزل!

---

١ (المزوازا) اعتقاد شأنه شأن أي اعتقاد عند أي ثقافة أخرى مثل من يرون أن طائر البومة يشكل لهم نحسًا بينما عند غيرهم تعتبر أيقونة للحكمة.
وكان اليهود يتبركون (المزوازا) وهي قطعة من الحديد تُثبت على إطار الباب الرئيسي للبيت من الداخل، وتكون بطول قلم الحبر، ويضعون يدهم عليها عند الدخول إلى المنزل، ويعتقدون أن هذه بمقدورها حماية البيت من قوى الشر.
ويكتب عليها اسم الله بأحرف أربعة هي: (شداي) وتعني عندهم (حامي أبواب إسرائيل).
ويتشاءم اليهود من القط الأسود باعتقادهم أنها تجلب سوء الحظ فإذا رأى اليهودي قطًّا أسود فعليه أن يبصق مرة واحدة في الاتجاه المعاكس لاتجاه سير القط.. والأوربيون يتشاءمون من القط الأسود، ومن العدد ثلاثة عشر!!
ويتشاءم العرب من رؤية الحذاء مقلوبًا! وأما إذا كان الحذاء الواحد فوق الآخر عند البغداديين فهو علامة للسفر، ويطالبون أبناءهم بإعادته إلى وضعه الطبيعي لأنهم يرون ألا يصلح أن يكون أسفل الحذاء مواجهًا للسماء!
وترى العرب الحذاء يعبر عن الإهانة، ولذلك غالبًا عندما كانت تحصل مشكلة بين نساء الحارة ترمي المرأة حذاءها في وجه غريمتها!! وكأنها تقول لها: إن قيمتك متدنية كقيمة الحذاء.

كانت ماريا تتحدث مع زوجها عيسى عن المعتقدات والخرافات وفي أثناء ذلك مرّ قِط أسود بجوارهما فضحكا، ثم أشعل عيسى النار ليبدآ في الدخول شيئًا فشيئًا داخل المنزل الذي كان كأنه لم يفتح منذ أمد بعيد!!

عندما فتحا الباب الأول شاهدا فانوسًا قديمًا مُعلّقًا في إحدى زوايا المنزل.

منظر الفانوس المغطى بالغبار لفت انتباه ماريا مما جعلهما يحاولان تنظيفه من الغبار، ونجحا في إشعاله.. وكانت ماريا تسكنها صورة الفأر الذي شاهدته يحفر في أسفل السلم!

واصلا التجوّل في المنزل حتى وصلا إلى غرفة الجلوس التي كانت مفروشة بفراش قديم ورث، وفي شباك النافذة كان يوجد (شمعدان) يحمل سبع شموع، وعندما نظرا إليه قال لها عيسى: إنه الشمعدان اليهودي (مينوراه)[١].

---

[١] يعد هذا (الشمعدان) مقدسًا عند اليهود الذين يرونه رمزًا من رموزهم الدينية، ورمزًا لدولتهم العبرية بعد احتلال فلسطين، وتظهر خلفه باللون الأزرق مع أغصان الزيتون كلمة إسرائيل باللون الرمادي لأنهم يعتبرون الزيتون مصدرًا للإنارة، ولقد تم استعماله قديمًا في إنارة المسجد الأقصى.. ولأنه يعد رمزًا للحرية فقد طبعه اليهود على نقودهم المعدنية.

كانت ماريا تلبس في يدها خاتم الدر الذي كانت تنظر إليه بين الفينة والأخرى، ولقد بيّنت لزوجها تفاؤلها الشديد بالخاتم الذي كانت ترى أنه سيجلب لهما الكنز، ثم شرعا في مواصلة المشي داخل المنزل المظلم رغم أنهما دخلاه في النهار! ثم بدآ في البحث عن سكين وجداه في الصناديق القديمة في المطبخ.

وكان حينها عيسى منبهرًا ومستغربًا من النهاية التي تطمح لها ماريا التي سحبته من يده! ومضت به نحو السلم الذي يتوسط المنزل والذي كان مغلقًا من أسفله، وفي وسطه فتحة صغيرة قد حفرها ذلك الفأر الذي رأته سابقًا!!

ثم بدأت في الحفر وسط استغراب عميق من زوجها الذي اعتقد أنها جُنّت! أو أصيب عقلها بلوثة!

بينما ماريا منهمكة في الحفر إذ شعرت بأنها قد ضربت شيئًا سميكًا! وحينها تدخل زوجها بالمساعدة في رفع الخشبة التي كان تحتها تابوت جميع إطاراته تلمع ذهبًا! وحاولا بكل جهدهما إخراج الصندوق ولم يستطيعا إلى ذلك سبيلًا.

كانا حينها في قمة التفاؤل والفرحة واقترح عليها عيسى العودة في اليوم التالي وإحضار آلات حفر وأدوات تساعدهما على إخراج الصندوق من الحفرة، وطلب منها ألا تخبر أحدًا بذلك، ووعدته بالوفاء بذلك الوعد.. وجعلت تتساءل مع نفسها: "هل ما رأته كان جثة مدفونة أم مومياء أم كنزًا؟".

في اليوم التالي ذهبا للمنزل وجهزا أدوات الحفر، وكانت ماريا تلبس خاتمها خاتم الحظ الذي تتحدث معه وكأنها تتحدث مع إنسان من لحم ودم! وتشعر بسعادة وطاقة كبيرة عندما تلبسه.

وبعد أن دعوا ربهما شرعا في مواصلة الحفر يمين الصندوق وشماله ليسهل عليهما إخراجه، وعندما ضربا سطح الصندوق بالمعول شعرا أنه قد اصطدم بمعدن أو شيء صلب! مما جعلهما يتفاءلان.

ولكنهما لم يستعجلا حيث ظلا لمدة تُقدر بعدة ساعات حتى أصبح الصندوق مهيأ للإخراج بسهولة، وفي لحظات أصبح الصندوق أمامهما يتأملان خشبه الفاخر المُزيّن بطلاء من الذهب اللامع، وعندما تأملاه أكثر وجدا أن أقفاله أيضًا من ذهب! لتقفز ماريا فرحًا وبهجة وسعادة لحلمها الذي تحقق لها، وتحتضن عيسى بكل حماسة وانبهار وشغف.

وعندما كسرا الأقفال ظهرت أجمل لحظات حياتهما تلك اللحظة التي تعدها ماريا بأنها من أجمل لحظاتها السعيدة، إذ كان الصندوق يحتوي على الأواني النادرة والقديمة جدًّا والتي كانت من الذهب الخالص والجواهر الثمينة المُرصعة بها، وجِرار مليئة بالعملات النقدية الذهبية التي تعود إلى تاريخ قديم جدًّا ربما للعهد السومري أو البابلي، وكان مطبوعًا صورة ملك الملوك الذي ربما يكون نبو خذ نصر.

خرج عيسى واستأجر عربة يجرها حصان، والتي استغرب صاحبها من إخراج صندوق مغطى بقماش رثّ من بيت قديم! فردّ عليه عيسى بأنها أغراض منزلية يود نقلها إلى أهله، وعندما وصلا استغربت أم ماريا من مشهد الصندوق الغريب! فردت عليها سريعًا بأنها أغراض خاصة بها وبزوجها.

ثم تحلقوا جميعًا حول مائدة عليها طبق (تمن باقلاء) ومرق البامية ورز العنبر (والشبت)، إضافة إلى تمر البرحي الذي تتميّز به أرض العراق.

وبعد تناول الغداء عاش معها عيسى في باحة المنزل أجواء عائلية مُميزة، حيث كانت السماء صافية، وأسراب الطيور مُحلقة في الفضاء، ومن تلك الطيور طير اللقلق الذي كان يقف بكل أمان على منارات مساجد بغداد وعلى الكنائس.

وما هي إلا لحظات وتنزل قطرات من المطر لتُضفي على اللحظة شُعورًا خاصًّا ورائحة كأنها رائحة الكافور، لقد خاف عليها عيسى من أن يؤذيها بلل المطر فدخل إلى داخل المنزل وجلب لماريا مظلة، وبعد مدة جميلة استأذن منها وغادر إلى شأنه.

دخلت ماريا إلى المنزل وفتحت الشبابيك لتدخل رائحة المطر الجميلة، وعندما نظرت إلى الخارج رأت قوس قزح في السماء، ذلك المنظر الذي يُذكرها بطفولتها، مما جعلها تصنع كويين من العنب وتجلس بجوار أمها في لحظة عائلية جميلة استعادا فيها ذكرياتهما القديمة، واستمعا الموسيقى الجميلة لناظم الغزالي الذي كان

مشهورًا في تلك الفترة الزمنية الجميلة.

وبعد أن استمتعت قليلا بقيثارتها[١] قالت لأمها بأنها ستخبرها عن سر عندما يأتي أبوها من العمل والذي صادفت عودته من العمل نوم ماريا وعندما قال لأمها هذا ليس وقت نومها فقالت له بغضب هي لا تسمع النصيحة لأنها ذهبت إلى المنزل القديم دون علمها. مما جعله يذهب ويجلس على سريريها ويوقظها من نومها، وقبل أن يتحدثا لفت نظره الصندوق الغريب في غرفتها! مما دفعه للسؤال عنه.

ابتسمت ماريا وقالت له هذا مفاجأة لكما! ثم جاءت معه إلى أمها وقبّلت رأسها واعتذرت منها.

ثم عادوا مجددًا إلى غرفتها لتخبرهما بأنها وجدت الكنز، مما جعلهما يستغربان ويظناها تمزح!! حتى أخبرتهما بالتفاصيل والجهود التي قامت بها مع عيسى لجلبه إلى المنزل.

فتح أبوها الصندوق وانبهروا بالجواهر والذهب الموجودة فيه!! ثم أغلقوه، وشرعوا في الحديث حول هذه الهِبة السماوية.

فقال لها أبوها إن عليهم تقييم العملة الذهبية وبيعها أو بيع شيء منها، وهدم البيت القديم، وبناء مكانه عمارة جديدة كونه في موقع تجاري مميّز يؤمن لماريا وعائلتها مستقبلًا رائعًا.

---

[١] أول قيثارة بالتاريخ كانت في العراق، والتي يحتفظ بها البريطانيون اليوم في متاحفهم في العاصمة البريطانية.

طلبت ماريا أن تتولى مسؤولية تخطيط بناء العمارة الجديدة حيث اقترحت أن يكون تخطيطه أعلى الطراز البغدادي العباسي القديم من الأقواس (والشناشيل)، وأن يكون تحت العمارة سوق يعلوه مقهى (وخان) وهو الفندق. ووعدها أبوها بدراسة جميع تلك الاقتراحات مع صديقه الخبير في البناء الكردي فرهالد الذي كان قد دعاه لحضور (عيد النيروز) [١]

[١] عيد النيروز هو عيد الربيع والشجرة، ويعد عيد رأس السنة الفارسية، إلا أن أكراد العراق يحتفلون به أيضًا، وهو يوافق ٢١ آذار.. و(نيروز) كلمة فارسية تعني يومًا جديدًا.

وكان يحتفل به الساسانيون الذين حكموا بلاد فارس، وكان العباسيون يقدمون الهدايا للفرس في (عيد النيروز)

وهو يمثل للأكراد هوية ثقافية وعيد قومي لأنهم انتفضوا فيه على الملك الضحاك.

وهو تراث ثقافي توضع فيه سفرة طعام فيها سبعة أطعمة تبدأ بحرف السين وتسمى (سفرة السينات السبعة).

ومن العادات الأخرى ظهور الحاج فيروز يلبس الأحمر، ويصبغ وجهه باللون الأسود، ثم ينشدون أغاني وقصائد شعبية ورقصات ودبكات نساء، ورجال يلبسون الزي الكردي، والذي يتضمن السروال العريض والجراوية المُرقطة ذات اللونين الأبيض والأسود.

بينما ترتدي النساء اللباس الشعبي الجميل بالألوان الزاهية، وتبدأ الموسيقى الكردية المميزة بالة (المطبك) وهي آلة من القصب وهي هوائية ذات موسيقى رائعة.

وعندما ذهبوا إلى (عيد النيروز) وجدوا أن فرهاد قد جهّز الذبائح والولائم، والكل كان يرحب بهم باللهجة الكردية والعربية.. وكانوا يمتلكون منازل من القش والطين، ولديهم مزارع شاسعة للقطن والقمح، وكانت الأرض خضراء مستوية جميلة رائعة، والجو كان صافيًا، وكل شيء ملون.

وبدأت الموسيقى والدبكات الشعبية الرائعة ثم جاء وقت الطعام عندما احتسوا شوربة (الترخينة)[1] وهي شوربة مميزة تمنح الجسم بعض الدفء خصوصًا أن شمال العراق طقسه بارد.

وبعد تناولهم الطعام زاروا قلعة كركوك[2] وشاهدت النار الأزلية لحقول البترول، ورأت مضارب البدو[3].. ورغم رحلتهم البعيدة إلا

---

[1] تتكون شوربة (الترخينة) من الحبوب واللبن المجفف ثم يضاف لها البصل، وطعمها يميل إلى الحموضة قليلًا.

[2] قلعة كركوك تحتوي على أقدم حضارة هناك، حيث وجد المنقبون أقدم آلة زراعية مصنوعة من منجل من الصخر يعود تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة.

[3] كانت الجلسات العربية في المضارب، كان الفرش كله صناعة يدوية نقش يدل على الحياة في تلك المنطقة ترمز إلى الماشية الحيوانات والأزهار كلها من الطبيعة كانت صناعة السجاد من الصوف، ويتم تلوينه يدويًّا بالألوان الطبيعية ويغزل وينسج باليد.

ويتم بسطها في المنازل ولذلك كانوا يسمونها (بالبساط) التي كانت تفرش في منازل الطين، أو في المضارب هناك في القرى التي تقع في أطراف كركوك.

وكانت قطعان الأغنام والأبقار تأكل الكلأ وتشرب من ماء الجداول، وحلّقت الطيور من الحباري، والدراج في سماء كركوك لأن الطقس كان ربيعًا.

أنهم لم يخشوا على الكنز الذي أبقوه في منزلهم، لأن العراق حينها كانت آمنة يعيش الناس فيها حياة هانئة وبسيطة.

وبعد أيام ذهبت مع عيسى لشراء شيء من الذهب، وبعض الأغراض من سوق النهر[١].

---

[١] كان سوق النهر يسمى بعدة مسميات منها: (شارع العرائس، وشارع البنات، وشارع النهر) وهو مكان ترى فيه جمال المرأة العراقية وأناقتها وطبيعة ذوقها، حيث إنه يعد من أكبر الأسوق للحلي والملابس والمصوغات والأقمشة والمكياج والعطور، وهو نافذة المرأة العراقية على الموضة العالمية في ذلك الزمان.

ويوجد في جنوبه جسر الأحرار، وتطل عليه غرفة تجارة بغداد، ويقع نهر دجلة في إحدى جهاته ولذلك من مسميات السوق شارع النهر الضيّق الذي لا تسير فيه المركبات، إضافة إلى بعض الفنادق التي كانت تُطل عليه (كخان النبكة والنملة والخضيري).

وكان من ضمن الصاغة المشهورين في ذلك السوق السيد هلال زهرون في شارع الكوت بقرب جامع الباجة جي، وجامع الخفافين الذي بني في العصر العباسي في وسط شارع النهر تقع بناية البنك المركزي العراقي.

ثم يأتي سوق دانيال نسبةً لأول بائع فيه وهو دانيال اليهودي الذي كان مُتخصصًا في بيع لوازم الخياطة.

وهناك محال لبيع العباءات الرجالية التي تميّزت بحياكة (الجاسبي) التي تميّز بها سكان جنوب العراق من خلال خياطة يدوية مُميزة جدًّا.

وفي نهاية شارع النهر توجد المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله عام ستمائة وخمسة وعشرين، وخلفها يأتي جسر الشهداء.

وفي أثناء وجودهما في السوق التقت ماريا بصديقة قديمة، وبعد السلام والأحضان دعتهما إلى حفل زفافها، وكتبت منها ماريا العنوان بدقة في ورقة، ووعدتها بالحضور.

ومرت الأيام سريعا لتذهب مع أمها وأم زوجها عيسى إلى زواج صديقتها كريمة من حاتم في قرية السلف[١] حيث رحب بهن أبو حاتم كثيرًا، وجهز لهن غرفة كبيرة من القصب والبردي ذات أسقف مقوسة، وهي ما يتميّز به منازل أهل القرى في الأهوار على نهر الفرات شرق العراق عند الحدود المقابلة لإيران.

وقدم لهن وجبة عشاء كانت عبارة عن (الطابك) وهو السمك[٢] وبعده قدم لهن تمر البرحي.

---

١ أهل قرية السلف كلهم أقارب، ومنازلهم كانت قريبة من بعضها البعض، ومبنية بالقصب والسعف.. وكانت طريقة نقل الماء عندهم عن طريق (المشحوف أو البلم).. والذي يتضمن النخيل فعندهم أنواع التمر مثل البرحي والخضراوي والأشرسي.

٢ كانوا يصيدون السمك من النهر القريب منهم بسنارات الصيد، ويطبخونه على النار بطريقة الشوي (السمك المسكوف).

ويطبخون أيضًا طبخة (الطابك) وهو عبارة عن شيء من الرز يوضع على قطعة من الحديد يسمونها (الصاج) على نار من الحطب.

(الجرغد) لباس شعبي للمرأة الجنوبية قطعة من القماش المزركشة السوداء على الرأس، والعباءة على الرأس، والجوارب السوداء، والحزام من القماش الأسود المنقوش بأجمل الألوان.

ناموا مبكرًا لأن القرية كان أهلها ينهضون باكرًا ويذهبون إلى أعمالهم الزراعية[١] حيث يزرعون غالبًا الرز العنبر (والشلب)، ويصنعون القشطة والزبدة واللبن الرائب من حليب البقر.

ولذلك قدَّم لهن أبو حاتم في الإفطار قشطة مع خبز التنور الحار والشاي واللبن والتمر، ورافقت لحظات إفطارهن ترحيبًا حارًّا من زوجته التي كانت ترتدي (الجرغد)، وكانت الرائحة العربية العطرة تفوح من ملابسها، وكان لديها وشم في وجهها الجميل والأبيض الناعم جدًّا.

---

[١] وكانت نساء القرية يقصّنّ الحشائش للجاموس والأغنام ويربين الدجاج، ولا يشترين شيئًا من السوق لأنه كان بعيدًا عنهن ويتعذر وصولهن إليه، لذلك كنّ يكتفين بما لديهن من غذاء من إنتاجهن الخاص.

وفي الليل كانت حفلة الحنة التي غنّت فيها النساء قبل أن يتم زف العريس من منزله حتى منزل العروس بأغاني إيقاع (الجدر) وهو أقدم أنواع الإلقاء، ومنهم من كان يُلقي القصائد الشعرية.

كانت العروس في أبهى حُلّة عندما وصل زوجها، وكانت تبلس الخِمار الأبيض وتغطي وجهها، ثم نقلها النسوة إلى حفلة العرس التي كانت غاية في الجمال والبهجة، والتي لبس فيها الرجال (الدشداشة) التي تمت خياطتها باليد، ونقشت بخيوط الحرير، وأطلقوا الرصاص الحيّ ابتهاجًا بالعرسان، وانتهت ليلة الفرح بسعادة غامرة.

وكانت ماريا قد سمعت عن آثار مدينة العمارة مما جعل أهلها يذهبون بها في اليوم التالي في رحلة للآثار التاريخية مثل: (زقورة اور)[١] وعندما ركبوا مع الدليل السياحي كان كبيرًا في العمر، وكان يُردد هذه الأبيات الشعرية ويقول:

---

[١] أهم الآثار في العمارة وذي قار هي (زقورة اور) وهي معبد يبعد أربعين كيلو غرب الناصرية.

(واور) هو موقع أثري سومري تقع في تل المقير الذي يعد معبد إله القمر (انيانا) عندما كانت عاصمة للسومريين قبل ألفين ومائة قبل الميلاد، وفي مدينة (الزقورة) ولد النبي إبراهيم عليه السلام قبل ألفي عام قبل الميلاد.

وتحتوي على ست عشرة مقبرة ملكية تعلو كل واحدة منها قبة، وفي كل مقبرة يوجد بئر.. ويدفن الملك عند موته مع جواريه وملابسه، وكل ما يملك بعد قتل الجواري بالسم!

(سعيد أنا بوصالك وأنت لاله نجم يضوي على دربك – وأنت لاله
أصيح بصوت أحبك وأنت لاله هجم بيتك جلد كلك اذية
يشامت لاتعت بالرح خلهه صفت صفصاف من فاركت خلها
بساميرك ابسدك ستر خلهه دكك بالجرح يوجر اذية)

أعجبت أبياته ماريا وأجابها عندما سألته عنها بأنها أبيات من دراما جنوب العراق، ثم حدثها عن الفرق بين العمارة وذي قار، فقال لها إن (لواء المنتفك) أسسه ناصر باشا السعدون، والناصرية هي مركز محافظة ذي قار.

كان دليلهم السياسي في الرحلة هذا العجوز الكبير الذي تظهر عليه تجاعيد الزمن، وعلامات تقدم السن، وكان يضع على رأسه (اليشمغ) وهو عبارة عن (كوفية) مرقطة بالأسود والأبيض والعقال الأسود ويلبس (دشداشة).

ولقد استفادت عائلة ماريا معلومات كثيرة منه عن كرم أهل جنوب العراق، وعن لمحات تاريخية مذهلة من تاريخ العراق العريق.

ولم يكتفِ الدليل السياحي بذلك إذ حدثهم عن شيء من تاريخ الصابئة مثل طقوس الزواج عندهم، حيث لا يتم عقد القِران حتى يدخلون في الماء ويصل إلى خصر كل واحد منهم! إضافة إلى أنهم كانوا يتقنون مهنة صياغة الذهب.

عادوا إلى منزلهم في بغداد وكانت ماريا سعيدة برؤية قِطتها الشيرازية ذات العيون الخضراء، والتي كانت تسميها لولو.. وبعد الاستحمام خلدت في نومٍ عميقٍ بعد سفرٍ طويل.

داري وإن جارت عليه عزيزة وأهلي وأن شحّوا عليه كِرامُ

داري وإن جارت عليه عزيزة   وأهلي وأن شحّوا عليه كِرامُ

